الإسلام والحضارة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع

٤ شارع سيد الخطيب - الثلاثيني العمرانية الغربية - الجيزة .

ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ - ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

الإسلام والحضارة

محمد يونس هاشم



دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

الكتاب : الإسلام والحضارة .

المؤلف : محمد يونس هاشم

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع ٤ شارع سيد الخطيب – الثلاثيني العمرانية الغربية – الجيزة .

ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ – ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١

الطبعة : ٢٠١٩

رقم الإيداع : ١٥٥٥٩

الهيئة العامة للكتاب

الفهرسة أثناء النشر

هاشم ، محمد يونس

الإسلام والحضارة ، محمد يونس هاشم ، الجيزة دار نوبل للنشر والتوزيع ٢٠١٩

ص ١١٦ – ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع : ١٥٥٥٩

١– دراسات

٢– العنوان

ديوي ٢١٤.٥

مقدمة

إن الله أوجب على الإنسان تعمير الكون كما أوجب عليه تزكية نفسه وعبادته جل وعلا ، وأن الغرب : أوربا / وأمريكا قد أخذ في أسباب العلم في تعمير الكون والاستفادة منه فأعطاه الله نصيبه في الدنيا من تقدُّم مادي وعلمي وظهور على سائر الأمم المتخلفة التي لم تأخذ في أسباب العلم والحضارة لكن لا نصيب لهؤلاء في الآخرة ؛ لأن أكثرهم لم يقوموا بمهمة الإنسان الأولى وهى عبادة الله وطاعته ، أما المسلمون فأكثرهم تظاهروا بعبادة الله – شكلاً – بأداء بعض العبادات كالصوم والصلاة دون أن تثمر فيهم هذه العبادات حسن الخلق ولا حسن العمل، فصلُّوا لكن صلاتهم لم تنههم عن الفحشاء والمنكر فلم تزدهم صلاتهم من الله إلا بعداً ، وصاموا عن الطعام والشراب وأفطروا على المعاصي والآثام فلم يكن حظهم من صومهم إلا الجوع ، وأهملوا– أو كادوا– مهمة الإنسان الثانية في هذه الحياة وهى تعمير الكون فتخلَّفوا حضاريّاً، فإذا كان أكثر الغربيين قد أهملوا دين الله الحق فشقوا في الدنيا ولم يعرفوا للسعادة ولا الطمأنينة طعماً وليس لهم في الآخرة من نصيب فقد أهمل أكثر المسلمين الدنيا فتخلَّفنا في الدنيا ولم نعرف للتقدم ولا للرقى طريقاً وليس لأكثرنا في الدنيا ولا في الآخرة من نصيب – إلا من رحم ربى – لأنه لا يدخل الجنة إلا من آمن بالله تعالى الواحد الأحد وزكى نفسه من آفاتها وعمل الصالحات ومن الأعمال الصالحات تعمير الكون .

فمن يعمل للدنيا فقط يعطيه الله تعالى الدنيا ويصليه في الآخرة جهنم، ومن يريد الآخرة لابد له من أمور ثلاثة : إيمان خالص بالله تعالى لا يشوبه شرك ولا رياء ولا سمعه ، وتخلِّي النفس عن الأخلاق السيئة وتحلِّيها بالأخلاق الحسنة ، وسعى في الأرض لإصلاحها وإقرار العدل والرحمة فيها ، وإعمار الأرض ونشر قيم الحق والخير والجمال فيها من الأعمال الصالحة التي لا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج ، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقى به الحياة ويسعد به الناس .. وكل عمل نافع يقوم به المسلم ، لخدمة المجتمع ، أو مساعدة أفراده .

يقول الله تعالى في سورة الشورى :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى : ٢٠]

ويقول تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

[هود : ٦١]

أي خلقكم من تراب هذه الأرض وأمركم بتعميرها فدخول الألف والسين والتاء على الفعل تدل على طلب القيام بالفعل كما يقول علماء اللغة فـ " استسقى " فلانا : أي طلب منه السقيا ، و" استطعمه " أي : طلب منه أن يطعمه ، و" استعمره " في الأرض : أي طلب منه تعميرها وإصلاحها .

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : " واحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " .

ويضرب الله تعالى المثل بذي القرنين ذالك القائد المؤمن ، وقيل أنه نبي ، الذي جمع بين الصلاح والإصلاح ، يذكر الله تعالى لنا قصته لتكون مثالاً لكل من يريد ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة يقول تعالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٣- ٨٥]

يبين الله تعالى بجلاء ووضوح لا يقبلان الشك ولا الجدال سر قوة وتمكين ذي القرنين في الأرض وهو أخذه في أسباب العلم والحضارة والتقدم والرقى. ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ قال ابن عباس: يعنى علماً .

إذن التمكين في الأرض لا يكون إلا بالأخذ في أسباب العلم الكوني : فيزياء وكيمياء وفلك ورياضيات وهندسة وراثية وعلوم تكنولوجية و .. وفي أسباب الحضارة من : نظام وتعاون وإخلاص ونظافة .. فإذا أراد الإنسان الجمع بين سعادة الدارين فعليه أن يضيف إلى إصلاح الدنيا صحة الإيمان بالله بل عليه أولاً أن يؤمن بالله تعالى ويؤدى ما افترضه عليه وينتهي عما نهاه عنه ثم يقرن هذا الإيمان بالعمل الصالح في الدنيا فإن فعل ذلك فقد استحق وعد الله بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين له وإبداله من بعد خوفه أمناً .

وفي هذا الكتاب بيان لمقومات الحضارة بصفة عامة ، وأسباب انهيار الأمم والشعوب ، وما يميز الحضارة الإسلامية عن غيرها ، وخصائص هذه الحضارة ، الشواهد الواقعية عليها ، وآثارها في تاريخ الإنسانية ، وتساؤلات حول الحضارة الإسلامية ، وأسباب تخلُّف المسلمين في العصر الحديث .

***

مقوّمات الحضارة والرقى

مفهوم الحضارة

يعرِّف ول ديورانت الحضارة فيقول : " الحضارة نظام اجتماعيٌّ يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافيِّ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها. (١)

وانتهى كثير من علماء الحضارة إلى أن كلمة حضارة تعني كل ما نجح الإنسان في إنتاجه ماديّاً أو عقليّاً نتيجةً لتفاعل الجماعة مع البيئة التي تعيش فيها . ويطلق بعض العلماء على النتائج المادية كلمة مَدَنيَّة، وعلى النتائج العقلية كلمة ثقافة . وتعتبر الحياة الدينيَّة ، والسياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والفكريَّة لأي بلد بمثابة مظاهر لحضارته وتقدمه في سائر المجالات . (٢)

عوامل نشأة الحضارة

يشترط علماء الحضارة عاملين رئيسيين لنشأة أي حضارة :

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " ج١ ص ١٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب .
(2) د. علي رضوان " مصر القديمة ، بلد التجربة والخبرة والحكم والعبرة " ص ١ مطابع الأهرام التجارية – قليوب .

الأول : المقومات الطبيعية التي تتمثل في :

١- أحواض الأنهار الكبرى كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في العراق ، والسند في الهند ...

٢- المناخ وهو من أكثر العوامل الطبيعية تأثيراً في حياة الإنسان وفي تقدمه ، فلابد من توفر مناخاً معتدلاً ، وشمساً مشرقة ، وسماءً صافيةً ، وهواءً عليلاً ، ورياحاً لا بالعاصفة ولا بالساكنة ، واختلافاً في حرارة فصول السنة .

٣- الموقع الذي يمكنها من الاتصال بالعالم الخارجي والتفاعل معه والتَّأَثْر به والتأْثير فيه .

٤- الحدود الآمنة من العدوان الخارجي .

٥- الثروات المعدنية من حديد ونحاس وذهب ...، والصخور كالجرانيت والرخام ... والأحجار الكريمة كالماس والعقيق ...

ثانيا : المقومات البشرية وفي السمات التي تميز الشعوب المتحضرة والتي تمكنهم من استخدام المقومات الطبيعية أحسن استخدام ومن أهم هذه السمات : الفطنة والذكاء ،والجد والاجتهاد ، والتضحية والفداء ، الإخلاص والإتقان، والتعاون والإيثار ...

وأن هذه العوامل قد توفرت جميعها في مصر القديمة لذا تمكنوا من إنشاء أول حضارة عرفها التاريخ فقد كانت مصر قبل أن يسكنها القدماء المصريون في حالة بدائية ليس فيها من مظاهر المدنية أو الحضارة شيء ، وقد تعجب كيف تحولت هذه البلاد من هذه الحالة البدائية إلى ما هو مشهور عنها من مظاهر الحضارة الفرعونية القديمة؟

والجواب عن هذا ، هو أن هذا التحول العظيم يرجع إلى عاملين رئيسيين :

أولا : أن مصر مع ما كانت عليه في العصور القديمة من حالة بريَّة إلا أنها كانت تحتوي على المقومات الأساسية اللازمة لقيام حضارة عظيمة (نهر النيل ، المناخ المعتدل ، الموقع المتميز ، الحدود الآمنة، الثروات المعدنية)، ولم يكن ينقصها إلا جهد الإنسان وتفكيره لإقامة هذه الحضارة .

ثانياً : أن قدماء المصريين ، الذين استوطنوا هذه البلاد ، كانوا على جانب كبير من الفطنة والجد والاجتهاد ، وقد استخدموا هذه الميزات في التغلب على الطبيعة ، فأقاموا حضارتهم العظيمة على مسرح البريَّة والتوحش ، وبذلك اجتمعت في مصر المقومات الطبيعية والمقومات البشرية مما هو ضروري لقيام أي حضارة . (١)

العوامل الحقيقية لنشأة الحضارة

والحقيقة أن مقومات الحضارة : الطبيعية منها والبشرية غير كافية وحدها لإنشاء حضارة وهي تفسير نظري حدسي لنشأة الحضارة المصرية القديمة أول حضارة عرفتها البشرية كما سيأتي بيانه في الصفحات التالية في هذا الفصل . إن الحضارة بمعناها الحقيقيِّ – وليست المَدَنيَّة أو العمران أو الثقافية – لابد أن يتوفر فيها جانبان :

١– دين سماويٌّ (عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأخلاق) .

٢– إبداع إنسانيٌّ : علميٌّ (علوم إنسانية ، وطبيعية ، ورياضية ، وفلكية ...) وتِقَنِي (اختراعات متطورة) وماديٌّ (تشييد وبناء ...)

---

(1) د. علي رضوان " مصر القديمة ، بلد التجربة والخبرة والحكم والعبرة " ص ٢ مرجع سابق.

وفنيٌّ (أدب ، ورسم ، ونحت ، وموسيقى ، وتصوير) وبدنيٌّ (رياضة: فروسية ، رمي ، سباحة ، عدو ، مصارعة ..) .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحيّاً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) وإنسانيّاً (مكارم في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسديّاً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابد أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، محافظة على توازن الإنسان والكون ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة إلا في الحضارة المصرية القديمة والحضارة الإسلامية الوسيطة ." (١)

الحضارة ليست قوة عسكرية فقط كما يفهم البعض ، فالقوة العسكرية قد تُفْلح في غزو بلد أو قهر أمة لكن لا يُكْتب لها الخلود أبداً فعندما تضعف هذه القوة أو تصحو الأمم المغلوبة من رقدتها فإن القضاء المبرم هو النتيجة الحتمية لها وتذهب غير مأسوف عليها مصحوبة باللعنات كما حدث مع الهكسوس والفرس والرومان والتتار وغيرهم .

والعلم وحده لن يصنع حضارة إذا لم تكن هناك قوة تحميه فكثيراً ما كانت البلاد المُتَخَلِّفة تقهر الأمم الُمَتَحِّضرة حدث هذا مع الهكسوس والفراعنة ، ومع الرومان واليونان ، ومع التتار والمسلمين ، ومع الصليبيين والمسلمين .

لأن العلم قديماً لم يحدث تغيراً جوهريّاً في أدوات الحرب فكان كلا الطرفيين المتصارعين يستخدم نفس الأدوات القتالية : السيف والدرع والرمح والقوس والسهم وكانت الفروق بين هذه الأدوات طفيفة لا تحسم

---

(1) " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف ص ٣٠٩ ، ٣١٠ مكتبة مدبولي .

به معركة كما كانوا جميعاً يركبون الخيول والدواب (١) إنما الذي كان يحسم المعركة هو الشجاعة في القتال ، ووحدة الهدف ، والاستبسال في تحقيقه ، والتضحية من أجله وليس شرطاً أن يكون هدفاً سامياً أو غاية شريفة إنما كان الهدف في كثير من الأحيان هو الطمع والرغبة في السيطرة والاستيلاء على ما في يد الغير وبسط النفوذ وتوسيع الملك...

لكن مع الثورة الصناعية وتطوير آلات القتال : طائرات وصواريخ ومدافع ودبابات ، وقنابل ذرية ، وأقمار صناعية... وتطورها بصفة مستمرة جعل الحرب مختلفة فلم تعد الشجاعة كافية ولم يعد العدد ذا بال ولم تعد البطولة لها قيمة تذكر فقذيفة من مدفع كفيلة بأن تدك حصناً بمن فيه من أبطال شجعان وفوارس لا يشق لهم غبار . وقنبلة ذرية واحدة تجعل مدناً أثراً بعد عين .

والعلم – الماديُّ – والقوة لن يصنعا حضارة قد يصنعان تقدماً علميّاً وتكنولوجيا ، يغزو البلاد ويذل العباد ، قد يحقق التقدم العلميُّ والتكنولوجيَّ مكاسبَ ماديةً ومغانمَ اقتصادية لكنه أبداً لن يحقق السعادة ولا الأمن فإن لم يقم العلم على دين صحيح فإنه لن يصنع إنساناً سويّاً ولن يحدث حضارة خالدة . وهذا هو حال الإنسان في الغرب المتقدم .

والحضارة كالإنسان تمر بمراحل : جنين ، ميلاد ، طفولة ، مراهقة، شباب ، هرم ، شيخوخة ، احتضار ، موت، تحلل .

أُسُس الحضارات جميعها التي ظهرت على الأرض أسس دينية النشأة علَّمها الله تعالى أنبياءه ورسله الذين راحوا يبنون هذه الحضارة ،

---

(1) ركب الفرس الأفيال في معركة القادسية وكانت صدمة كبيرة للمسلمين عانوا منها الكثير لكن بفضل الإيمان الراسخ والعزيمة الصادقة التي لا تفل تمكنوا من قهر الأفيال ومن عليها .

ويشيدون بناءها وهذا ما يفسر لنا حيرة علماء الحضارة وفلاسفة التاريخ إزاء نشأة الحضارة وتطورها ، وإليك ملخصاً لنظريات المؤرخين في هذا الصدد وتعليقنا عليها .

نظريات المؤرخين في فلسفة التاريخ

أولا : النظرة الدينية (غير الإسلامية)

تفترض النظرة الدينية وجود قوة عظمى هي المشيئة أو القدرة الإلهية التي تحدد مصائر الأفراد والشعوب ، إذ أن الآلهة تبعاً لتلك النظرة كان لها دور المَشرِّع والقاضي ففي عصر البرونز تصورت الشعوب آلهتها في صورة الإنسان الصانع الذي يملك بيديه سلطة قوية إلى الحد الذي تخلق معها قانوناً يُسيِّر شئون البشر ، وهكذا اعتقد كثير من فلاسفة اليونان القديمة ، وتاريخ كهذا ينصح الحكام بكيفية كسب إرضاء الآلهة أو على الأقل يوحي بالخضوع للإرادة المقدسة .

ويتفق منهج تاريخ الكنيسة المسيحية مع هذا المبدأ السابق ، ولكنه بصورة أعمق إذ تعتبر حركة التاريخ الحقَّة ، هي خطة لخلاص العالم موضوعة سَلَفاً وبالتالي تكون مهمة المؤرِّخ هي تتبع خطوات تنفيذها ، ويعد القديس أوغسطين من أبرز الممثلين لذلك المنهج الصوفيِّ داخل الحضارة المسيحية " . (1)

وهذا المنهج لنظام التاريخ وتطوره فيه حق وباطل فالحق فيه أن وجود إله لهذا الكون خلقَهُ وأبدَعَهُ ، وخَلَقَ الإنسانَ وشرَّعَ له ، وسوف يحاسبه على عمله .

---

(1) نيقين جمعة علم الدين " فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي " ص ٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٦-٨]

فهذا حقٌّ أما أن الإنسان مُسَيَّر ولا حيلة له فيما يفعل فهذا باطل فالله تعالى جعل الإنسان في هذه الدنيا مختاراً .

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾
[الكهف : ٢٩]

ولم يجبر الله تعالى أحداً على فعل شيء .

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٩٩]

كما أن الخضوع لله ليس عملاً سلبيّاً كما ترى هذه النظرية إنما الخضوع لله معناه القيام برسالته وهي إخلاص العبادة لله وفق ما شرع وتعمير كونه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وعدم الإخلال بالميزان الإلهي الذي خلق الكون به

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٩]

وأن القيام بمنهج الله تعالى يحقق رقيّاً وتقدماً وسعادة في الدنيا والآخرة .

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾

[مريم : ٥٨]

وأن الخروج عن هذا المنهج بعبادة القوى الطبيعية ، أو الأصنام ، واتباع الشهوات ، والطغيان في الأرض يهلك صاحبه في الدارين .

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص : ٥٩]

كما أن هذه النظرية لا تفسر لنا نشأة الحضارة ، واضمحلالها ، وموتها ، ولم تكشف لنا عن لغز الحضارة المصرية القديمة الذي احتار فيه المؤرخون قديماً وحديثاً .

ثانيا : النظرية السحرية :

ويعتبر المفهوم السحريُّ في تفسير حركة التاريخ أكثر قدماً من النظرية الدينية فقبل أن يعرف البشر الآلهة كانت القبائل البدائية تعتقد بأن الطبيعة " مسكونة " بقوى وأرواح واعتقد هؤلاء الأقوام بأنهم يمكن أن يسيطروا على هذه القوى من خلال أعمال السحر ولهذا لم يكن المَلِك في عصور الملكيات الوثنية واضعاً للقانون فحسب بل كان في نظر الرعية ، مسئولاً عن توفير الرخاء الماديِّ في مملكته ، فكان ملوك مصر على سبيل المثال يضمنون شروق الشمس وفيضان النيل عن طريق ممارستهم لطقوس سحرية لا يمكن لأحد أن يمارسها سواهم ، ومن الطبيعيِّ – بناءً على ذلك – أن يصبح الملك هو العامل الوحيد المؤثر في جميع الأحداث التاريخية وبالتالي نجد أن سجلات الملوك القدامى ما هي إلا تعبير عن نظرية الرجل العظيم في التاريخ .

واعتقد اليونانيون بأن رخاء واستقرار مدنهم لا يعود إلى الدساتير وحدها بل إلى حكمة واضعيها وهكذا كان أفلاطون يعتقد أنه بمجيء الملك الفرد ستتخلص الحياة السياسية من أسقامها ، لأن ذلك الملك هو وحده الذي يمكنه أن يفعل ذلك ، أما بالنسبة للعصر الحديث فيقف "

توماس كارليل " على رأس المنادين بنظرية " الرجل العظيم " إذ يعتقد أن التاريخ الإنسانيَّ الذي تحقق إنما هو تاريخ الرجال العظماء " (١)

والنظرية السحرية تستبعد وجود الله تعالى ورسالاته في تقدم الحياة وتعزو كل استقرار ومدنية إلى قدرات الأفراد الذين يستخدمون السحر في تسخير الطبيعة ، أو يستخدمون عبقريتهم في سياسة الناس ، والحقيقة أن اللجوء إلى تفسير الحضارة إلى استخدام أصحابها للسحر تفسير بدائيٌّ لا يتفق مع العلم ولا الدين ، فهذا ما يسميه علماء النفس التفكير الخرافي فكل إنسان يعجز عن تفسير ما يجهله يردُّه إلى السحر والأرواح ، وأحياناً كنوع من التعمية يشيع أصحاب الحضارة أن ما وصلوا إليه من تقدم علميٍّ مذهل إنما كان عن طريق السحر ليس إلا كما فعل كهنة مصر مع هيرودوت وغيره من الأجانب غير المؤمنين بعقيدة قدماء المصريين .

والسحر الذي استخدمه المصريون في إنشاء حضارتهم هو سحر العلوم الإلهية التي أوحى الله تعالى بها إلى أنبيائه ورسله . وهذا السحر لم يبطل بموت قدماء المصريين إنما هو باق ببقاء شريعة السماء .

ثالثا : التفسير الأنثروبولوجي :

وتُرْجِع هذه النظرية التقدم والتحضر للتفوق العنصري فهناك شعوب قادرة على صنع هذا التقدم وشعوب غير قادرة ، وعلى الشعوب المتحضرة أن تقهر وتضطهد وتستغل الشعوب المتخلفة " واسْتُغِلَّت هذه النظرية لتبرير القهر والاضطهاد العنصري الذي يمارسه الرجل الأبيض

(1) نفسه ص ٦ .

على الزنوج والأقليات وقد أدخلت هذه النظرية الزائفة بعض الاستعارات من مبدأ " دارون " عن الانتخاب الطبيعيِّ والبقاء للأصلح " (١)

وهذه النظرية تخالف كل الأديان السماوية الداعية إلى الرحمة والحب والتعاون بين سائر البشر وأن يرحم القويُّ الضعيف ويعطف الغني على الفقير .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات : ١٣]

وهناك نظريات أخرى لتفسير التاريخ باعتباره فرعاً للاقتصاد السياسيِّ ، وأخرى على اعتباره علم مقارن ، وثالثة تفسيره وفقاً للماديَّة الجدلية .

وجميعها لا تُشِر من قريب أو بعيد لدور الأديان السماوية في صناعة الحضارات الإنسانية التي يجمع المؤرخون المنصفون على أنها بدأت من مصر القديمة .

الفرق بين التقدم العلمي والتكنولوجي والحضارة

والحقيقة أن مقوَّمات الحضارة الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب لا يصنعان حضارة حقيقيَّة قد يصنعان تقدُّماً علميّاً وتكنولوجيّاً ، يغزوان البلاد ويذلاَّن العباد ولا يحققان إلا البؤس والشقاء ، ومصيرهما الهلاك والفناء؛ قد يُحَقِّق التقدُّم العلميُّ والتكنولوجيُّ مكاسب ماديَّة ومغانم اقتصاديَّة لكنه أبداً لن يحقِّق سعادة النفس ولا طمأنينة القلب ولا غذاء

(1) نفسه ص ٩ .

الروح ؛ فإن لم تُقَم المَدَنيَّة على دين صحيح وخلق قويم وسلوك مستقيم فإنها لن تصنع إنساناً سويّاً، ولن تقيم حضارة خالدة تنفع الإنسانيَّة .
وهذا هو حال جميع مَدَنِيَّات الممالك والإمبراطوريات التي لم تُبْن على تعاليم السماء : الحق والعدل والحب وحسن الخلق ، كلها زالت غير مأسوف عليها بسبب ضلالها وظلمها .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
[الروم : ٩]

وهي دعوة إلى النظر في أحوال الأمم القديمة والحديثة التي شيَّدت مَدَنِيَّتها على المقومات الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب دون تعاليم السماء ، نعم ملكوا القوة الباطشة ﴿كانوا أشدَّ منهم قوَّة﴾ وحرثوا الأرض وشقُّوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ وعمَّروا الأرض ؛ فأقاموا المدن الكبيرة وبنوا فيها القصور الفخمة وزيَّنوها بالحدائق الجميلة ونحتوا فيها التماثيل الضخمة وأحاطوها بالأسوار الجميلة ذات الأبراج العالية ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ لكنهم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : ﴿وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ .

فلم تتفتح بصائرهم لهذه السيئات؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق . فمضت فيهم سنَّة الله في المكذِّبين؛ ولم تنفعهم قوَّتهم؛ ولم يُغْن عنهم علمهم ولا حضارتهم؛ ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقُّونه : ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١)

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٤٨١ .

دعوة القرآن للنظر في أسباب هلاك الأمم السابقة

قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾

[الأنعام : ٦]

ألم ير أصحاب المدنيات المادية التي تنعمت بنعم الله وكفرت بالمُنْعِم سبحانه إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكَّنهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوَّة والسلطان ما لم يُعْط مثله لهؤلاء وغيرهم ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق.. ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذِّبين المُعْرِضين أصحاب القوَّة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً! لقد أُهْلِكُوا وغَبَروا فما أحسَّت هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمَّرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

حقيقة ينساها البشر حين يمكِّن الله لهم في الأرض

وهناك حقيقة ينساها البشر حين يمكِّن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تمَّ بمشيئة الله ، ليبلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبوديَّة له وحده ، والتلقي منه وحده – بما أنه هو صاحب المُلْك وهم مُسْتخْلَفون فيه – أم يجعلون من أنفسهم طواغيت ،

تـدَّعي حقـوق الإلوهيـة وخصائـصها؛ ويتـصرَّفون فيمـا اسْـتُخْلِفُوا فيـه تصرَّف المالك لا المُسْتخْلَف .

إنها حقيقة ينساها البشر – إلا من عصم الله – وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ؛ ويمضون على غير سنَّة الله ؛ ولا يتبيَّن لهم في أوَّل الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون ، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله ، ثمَّ تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال – بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام – ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام – ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذِّب بعضهم بعضاً ، ويدمِّر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلِّط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – يكسرون شوكتهم ، ويقتلعونهم مما مُكِّنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السُّنَّة .. السعيد من وعى أنها السُّنَّة ، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما اسْتُخْلِف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظنَّ أنه أوتيها بعلمه ، أو أوتيها بحيلته ، أو أوتيها جزافاً بلا تدبير!

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر ، مُمَكَّناً له في الأرض ، غير مأخوذ من الله ، ولكنَّ الناس إنَّما يستعجلون ، إنهم يرون أوَّل الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق ،ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مَصَارِع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث والقرآن الكريم يوجِّه إلى هذه

المَصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون – في حياتهم الفرديَّة القصيرة – نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق !

الفرق بين التفسير المادي للتاريخ والتفسير الإسلامي

إن هذا النص في القرآن : ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم إنما يقرِّر حقيقة ، ويقرِّر سنَّة ، ويقرِّر طَرَفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقاديَّة التي يقوم عليها .

والتفسير الإسلاميُّ – بشموله وجدِّيته وصدقه وواقعيته – لا يغفل أثر العناصر الماديَّة – التي يجعلها التفسير الماديُّ هي كل شيء – ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة؛ ويبرز العناصر الفعَّالة الأخرى التي لا ينكرها إلاّ أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود ، يبرز قَدَر الله من وراء كل شيء؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعيَّ والعنصر الأخلاقيَّ ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنّة الله في الحياة . (١)

هل العرب المسلمون أفضل من الغرب العلماني ؟

حتى لا نخدع أنفسنا ونظن أنفسنا ، نحن المسلمين ، أننا أفضل من الغرب المسيحي واليهودي بما حبانا الله تعالى به من نعمة الإسلام التي

---

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ٤٧٠– ٤٧٣ بتصرف .

لا فضل لنا فيها إلا جحودها جحود عمل وتطبيق لا جحود اعتقاد وتصديق على أحسن تقدير . يجب أن نعرف أن الله أوجب على الإنسان تعمير الكون كما أوجب عليه تزكية نفسه وعبادته جل وعلا ، وأن الغرب قد أخذ في أسباب العلم في تعمير الكون والاستفادة منه فأعطاه الله نصيبه في الدنيا من تقدم مادي وعلمي وظهور على سائر الأمم المتخلفة التي لم تأخذ في أسباب العلم والحضارة لكن لا نصيب لهؤلاء في الآخرة ؛ لأن أكثرهم لم يقوموا بمهمة الإنسان الأولى وهى عبادة الله وطاعته ، أما المسلمون فأكثرهم تظاهروا بعبادة الله – شكلاً – بأداء بعض العبادات كالصوم والصلاة دون أن تثمر فيهم هذه العبادات حسن الخلق ولا حسن العمل ، فصلُّوا لكن صلاتهم لم تنههم عن الفحشاء والمنكر فلم تزدهم صلاتهم من الله إلا بعداً ، وصاموا عن الطعام والشراب وأفطروا على المعاصي والآثام فلم يكن حظهم من صومهم إلا الجوع ، وأهملوا– أو كادوا– مهمة الإنسان الثانية في هذه الحياة وهى تعمير الكون فتخلفوا حضاريّاً ، فإذا كان أكثر الغربيين قد أهملوا دين الله الحق فشقوا في الدنيا ولم يعرفوا للسعادة ولا الطمأنينة طعماً وليس لهم في الآخرة من نصيب فقد أهمل أكثر المسلمين الدنيا فتخلفنا في الدنيا ولم نعرف للتقدم ولا للرقى طريقاً وليس لأكثرنا في الدنيا ولا في الآخرة من نصيب – إلا من رحم ربى – لأنه لا يدخل الجنة إلا من آمن بالله تعالى الواحد الأحد وزكى نفسه من آفاتها وعمل الصالحات ومن الأعمال الصالحات تعمير الكون .

سمات من يعمل للدنيا ومن يعمل للآخرة

تأمل معي هذه الآيات المباركات .

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٨-٢١]

والآيات شديدة الوضوح فمن يعمل للدنيا فقط يعطيه الله تعالى الدنيا ويصليه في الآخرة جهنم ، ومن يريد الآخرة لابد له من أمور ثلاثة : إيمان خالص بالله تعالى لا يشوبه شرك ولا رياء ولا سمعه ، وتخلي النفس عن الأخلاق السيئة وتحليها بالأخلاق الحسنة ، وسعى في الأرض لإصلاحها وإقرار العدل والرحمة فيها ، وإعمار الأرض ونشر قيم الحق والخير والجمال فيها من الأعمال الصالحة التي " لا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج ، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقى به الحياة ويسعد به الناس .. وكل عمل نافع يقوم به المسلم ، لخدمة المجتمع ، أو مساعدة أفراده .. " (١)

يقول الله تعالى في سورة الشورى :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى : ٢٠]

ويقول تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١]

أي خلقكم من تراب هذه الأرض وأمركم بتعميرها فدخول الألف والسين والتاء على الفعل تدل على طلب القيام بالفعل كما يقول علماء اللغة فـ " استسقى " فلانا : أي طلب منه السقيا ، و" استطعمه " أي : طلب منه أن يطعمه ، و" استعمره " في الأرض : أي طلب منه تعميرها وإصلاحها .

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " ص١٠٥ ، ١٠٦ بتصرف .

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : " واحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " .

ذو القرنين مثال الصلاح والإصلاح

ويضرب الله تعالى المثل بذي القرنين ذالك القائد المؤمن ، وقيل أنه نبي ، الذي جمع بين الصلاح والإصلاح ، يذكر الله تعالى لنا قصته لتكون مثالاً لكل من يريد ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة يقول تعالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٣- ٨٥]

يبين الله تعالى بجلاء ووضوح لا يقبلان الشك ولا الجدال سر قوة وتمكين ذي القرنين في الأرض وهو أخذه في أسباب العلم والحضارة والتقدم والرقى.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

قال ابن عباس: يعنى علماً.

لقد أعطى الله تعالى ذا القرنين العلم فأخذ في أسبابه وأخذ العلم عن علماء كل بلد فتحها بعد أن تعلم لغاتهم " كان لا يعرف قوماً إلا كلمهم بلسانهم " (١) وبالعلم والإيمان ملك ذو القرنين الأرض .

سئل النبي عن ذي القرنين فقال: " ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب " (٢) ويؤكد القرآن أخذ ذي القرنين بأسباب العلم ثلاث مرات ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٥] ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٩]

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٩٢] .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: {وآتيناه من كل شيء سببا}.

(٢) هذا الحديث ذكره القرطبي في تفسيره وكذلك السيوطي عن ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن خالد بن معدان الكلاعي) .

عوامل التمكين في الأرض

إذن التمكين في الأرض لا يكون إلا بالأخذ في أسباب العلم الكوني : فيزياء وكيمياء وفلك ورياضيات وهندسة وراثية وعلوم تكنولوجية و .. وفي أسباب الحضارة من : نظام وتعاون وإخلاص ونظافة .. فإذا أراد الإنسان الجمع بين سعادة الدارين فعليه أن يضيف إلى إصلاح الدنيا صحة الإيمان بالله بل عليه أولاً أن يؤمن بالله تعالى ويؤدى ما فترضه عليه وينتهي عما نهاه عنه ثم يقرن هذا الإيمان بالعمل الصالح في الدنيا فإن فعل ذلك فقد استحق وعد الله بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين له وإبداله من بعد خوفه أمناً .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٥٥]

وفي سورة الروم يضرب لنا الله تعالى المثل بالأمم القوية الأشداء أهلها الذين استطاعوا أن يثيروا الأرض ويعمروها لكنهم كفروا بما جاءتهم به رسولهم من الهدى ودين الحق فأعطاهم الله نصيبهم في الدنيا : القوة والمنعة والعلو وكافأهم بسعيهم في الدنيا فلاحاً وما كان الله ليظلمهم في الدنيا لكنهم ظلموا أنفسهم في الآخرة بترك عبادة الله .

والأمثلة في التاريخ كثيرة فالحضارة اليونانية والرومانية والفارسية والأوربية الحديثة والأمريكية المعاصرة رغم عدم إيمان أكثرهم إلا أن الله مكن لهم في الدنيا ما داموا مصلحين للدنيا فإن تفش فيهم الفساد والظلم دمر الله عليهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
[الروم : ٩]

ويقول تعالى في سورة هود أنه سبحانه لن يعاقب الكفار المصلحين في الدنيا بكفرهم بل سيعطيهم أجرهم فيها بقدر إصلاحهم لها ، أما الآخرة فالنار مثوى الكافرين ، أما الأمم التي عاقبها الله تعالى في الدنيا فكان بسبب الإفساد في الأرض لا بسبب الشرك وحده .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص : ٥٨-٦١]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود : ١١٧]

قوله تعالى: "وما كان ربك ليهلك القرى" أي أهل القرى . "بظلم" أي بشرك وكفر. "وأهلها مصلحون" أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط ؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده" (١)

---

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١١٤ .

فالظلم والطغيان والإفساد في الأرض هو سبب هلاك الأمم وليس الكفر وحده والتاريخ يشهد بذلك فأهل الغرب أكثرهم كافرون بالله تعالى لكنهم في الدنيا مصلحون أو على الأقل أفضل من المسلمين في إصلاح الدنيا وتعميرها فلم يهلكهم الله تعالى في الدنيا إنما أهلكنا نحن بهم بسبب ظلم أكثرنا وعدم إصلاحهم في الدنيا .

أين نحن من مقوِّمات الحضارة ؟

يقول د. حسين مؤنس أحد مؤرخي العرب المحدثين: " إن الحضارة علم وتعاون وفهم ونحن لن نتحرك خطوة إلى الأمام إلا إذا كانت لدينا هذه الأربعة والعلم ليس شهادة بل معرفة وثيقة ومؤكدة .. مئات الشهادات عندنا خسائر قومية لأنها لا تساوى الورق الذي طبعت عليه والواحدة منهن ، أي من الأجنبيات الغربيات ، إذا جلست للعمل انصرفت إليه بقلبها وعقلها وإحساسها جميعا لأنها تريد أن تعمل أحسن ما يستطيع البشر وأقل من هذا لا يرضيها لأنها متحضرة وهى تتعاون مع زميلاتها خطوة خطوة لأن الحضارة تعاون والإنسان الفرد لا يمثل حضارة ولا ينهض بحضارة ، ومصيبة تاريخنا أننا لا نعرف التعاون .. ولو أن الناس عندنا لديهم أدنى إدراك لمعنى العمل المشترك لما كان الأتوبيس عندنا على هذه الصورة المزرية . سألني سائل : ماذا يخسر أولئك الناس لو وقفوا طابورا و تركوا الخارج يخرج ثم دخلوا بالدور بنظام وقيمة ؟ قلت : هؤلاء يا أخي ناس غير متحضرين ، إنهم همج ، وإخواننا هؤلاء هم أبناء عمومة الآخرين الذين يربون البلهارسيا في أجسادهم ، وهم أخوة العمال الذين أنتجوا ما يقدر بستة بلايين من الجنيهات بضائع لا يشتريها أحد لأنها لا تصلح للاستعمال والذين أنتجوها يعملون دائما دون تركيز ودون التفات ودون اكتراث إنهم غير متحضرين إنهم همج .. صدقني .. همج ! .. مثل هذا المستوى

البدائي الذي نعيش فيه لا يمكن أن نصل إلى مستوى العلم والإنتاج الذي حدثتك عنه – يقصد الإنتاج الغربي – لأن هذا كله ثمرة العمل الجماعي ، وأنا عشت في أوساط العلم في أوروبا وأمريكا وأعرف كيف يتعاملون ، لا أحد يعمل منفرداً أبداً وكما أن السيارة التي حدثتك عنها هي ثمرة عمل ألف يد وألف عين فكذلك كل قطعة فيها فإن العلم لا يزرع ولا يوجد على الأرض ولا يستخرج من البحار كاللؤلؤ إنما هو ثمرة العمل الجماعي وقد وصل العلم في عصرنا إلى مستويات أشك معها في أن نستطيع اللحاق بهم فيها إلا إذا تغير فينا كل شيء فنحن بدائيون أنانيون ، ونحن مازلنا نهيم على وجوهنا ضائعين في مجتمعنا هذا الذي هو في الحقيقة غابة . يقول لك الجامعيون لقد أعددنا مكانا لكل حاصل على الثانوية العامة ، وماذا سيفعل الطالب في هذا المكان؟ لا شيء . إن أستاذه نفسه بعيد جداً عن فكرة العلم في عصرنا، والمسالة كلها خطف، الطالب يخطف ، والأستاذ يخطف ، وقرود الغابة مطلقة على وجهها " (١)

ولو أن الغرب المتحضر وصله الإسلام بشكل صحيح ، وأن المسلمين لم يكونوا صورة شائهة له ، وكف إعلامه عن تشويهه لدخل الغرب المتحضر في دين الله أفواجنا ، ولتخلى عن كل المعتقدات التي يدين بها سواء أكانت سماوية محرفة أم دنيوية مؤلفة .

***

---

(١) د. حسين مؤنس " المصريون والحضارة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٤٨– ١٥٠

فساد الأخلاق وانهيار الأمم والشعوب

لكل أمة أجل

يبيِّن القرآن الكريم أن لكلِّ أمَّة أجل ، كما يؤكد لنا التاريخ أن كل ما له بداية له نهاية ، وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ، وكما أن الإنسان يمر بأطوار : ميلاد ، وطفولة ، وصبا ، وشباب ، ورجولة ، وشيخوخة ، وموت فكذلك الحضارات الإنسانية ، ونهضات الشعوب تمر بعدة أطور : ميلاد ، ونهضة ، وكمال ، واضمحلال ، وفناء .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤]

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

[الروم : ٥٤]

والعامل المشترك في اضمحلال حضارات ونهضات الأمم والشعوب هو فساد الأخلاق ، وانحلال القيم ، وتفشى الظلم والطغيان ، وبطَر العيش، وكفر النِّعَم ، وكثرة الإسراف والترف ، وانتشار الزنا والخَنَى والفواحش والمنكرات .

ولِلَّهِ دَرُّ أحمد شوقي حين قال :

إنَّمَا الأمَمُ الأخْلاقُ ما بَقِيَتْ * فإنْ هُمُوا ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

مُهْلِكَات الأمم

ونُجْمِل أهم مُهْلِكَات الأمم في الآتي :

١- الظلم :

إن الظلم من أعظم الأسباب التي يهلك الله عز وجل بها القرى، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]

وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص : ٥٩]

وقال جل شأنه : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ [الأنبياء : ١١] .

وقال عز وجل : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥] .

فالظلم وعدم الحُكْم بالسويَّة سبب هلاك الأمم كما يقرر القرآن العظيم، وبيَّن رسوله كريم يقول النبي ﷺ : " إِنَّمَا أَهْلَك مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَايْمُ الله ، لَوْ أَنَّ فَاطمَةَ بِنْتَ مُحمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعتُ يَدَهَا " [متفقٌ عَلَيْهِ].

٢- بَطَر النِّعَم :

ومن الأسباب الحقيقية التي تؤدى إلى هلاك الأمم بطر النعم يقول تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨] .

لقد أهلك الله كثيراً من الأمم التي لم تقابل نعم الله عليها بالشكر وتحسن استخدامها في الخير بل تمتعوا بالنعم وكفروا بالمُنْعِم واستطالوا

بهذه النعم على خلق الله ، واستعملوا نعم الله في الشر لا في الخير ، وفى الفسوق لا في الطاعة ، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ودمرهم وقراهم تدميراً .

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] .

ومن أنواع البَطَر التباهي بالقوة والجبروت واستخدام ذلك للتعدي على الإسلام وعلى الداعين إلى الله وللصد عن سبيل الله، وهو ما تفعله أمريكا وتشجع وتؤيد حلفاءها على فعله واقترافه، قال تعالى ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

٣- الإسراف والتَّرَف :

ومن أسباب هلاك الأمم الإسراف والتَّرَف .

والتَّرَف: هو الإغراق في النعم والاسترسال معها حتى تصبح كل هموم الإنسان - لزينة الثياب والتزين والتَّجَمُّل- والمترفون هم أعداء الرسل وهم سبب هلاك الأمم .

ومن نتائج التَّرَف: الغفلة، وعبادة الشهوة، والصراع على المكاسب، والعقوبات التدريجية وضياع الدنيا والآخرة.

يقول تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القول فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء : ١٦] .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا في الأرض فساداً.

وخص الله تعالى المترفين بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة ، فإذا ما استجابوا للأمر استجاب غيرهم تبعا لهم في معظم الأحيان ، ولأنهم في أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس في المتع والشهوات .

وهذا التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .

٤- ظهور الفواحش :

من أسباب هلاك الأمم ودمارها: ظهور الفواحش فيها.

فالله تعالى حرَّم الفواحش كلها ظاهرها وباطنها ، سرها وعلانيتها ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

الفواحش : كبائر المعاصي والأعمال المفرطة في القبح عامة أما المفرد فاحشة فيقصد به الزنا بصفة خاصة ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾ [الإسراء:٣٢] .

ولقد توعَّد الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة بالعذاب في الدارين في الدنيا بالهلاك والدمار وفي الآخرة بالجحيم والنار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩] .

ويقول ﷺ : " لا إلـهَ إلاّ الله ، وَيلٌ للْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ مِثْلَ هذِهِ " ، وحلّق بأُصبُعيهِ الإبهامِ والتي تليها، فقلتُ : يَا رَسُول الله ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

والخبث كما ذكر شُرَّاح الحديث هو الزنا، وأولاد الزنا، والفواحش، والفجور .

وفي أول خطبة لأبي بكر الصديق بعد توليه الخلافة حذَّر فيها الناس من إشاعة الفاحشة حتى لا يصيبهم البلاء والهلاك يقول الصديق " وَلا تَشِيعُ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطّ إلا عَمّهُمْ اللهُ بِالبَلَاءِ " [صححه ابن كثير] .

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال :" دخلت على عائشة رضي الله عنها أنا ورجل آخر، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمر وضربوا بالمآذن، غار الله جل وعلا في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا وإلا هدمها عليهم، قال: يا أم المؤمنين أعذابا لهم؟ قالت: موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالاً وعذابًا وسخطًا على الكافرين" قال أنس: "ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحًا به مني بهذا الحديث"، ويقول ابن مسعود : " إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله بهلاكها."

***

خصائص الحضارة الإسلامية

تتميز الحضارة الإسلامية عن غيرها أنها حضارة توحيد خالص وخُلقٍ راسخ وعمل صالح ؛ فقد قامت الحضارة الإسلامية على تعاليم الإسلام الرامية إلى توحيد الله الواحد الأحد ووصفه بكل صفات الكمال وتنزيهه عن كل صفات النقص ذلك التوحيد الذي سوَّى بين كل البشر أمامه تعالى فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أبيض على أسود ، ولا غني على فقير ، ولا رجل على امرأة ، ولا حاكم على محكوم ، ولا صحيح على مريض إلا بالتقوى والعمل الصالح والخلق الكريم يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] .

ويقول النبي ﷺ في خطبة الوداع : " قَالَ رَسُولُ ﷺ : أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى ألا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ : لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " [صحيح رواه أحمد] .

" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ " [صحيح مسلم] .

وبجانب عقيدة التوحيد التي تميز الحضارة الإسلامية تأتي الأخلاق التي تمثل الغاية من بعثة النبي ﷺ كما بينا في الفصول السابقة ، والأخلاق في الحضارة الإسلامية لا تقتصر على مجال واحد من

مناحي الحياة بل تشمل جميع مناحي الحياة : السياسية ، والاجتماعية، والاقتصادية ، والحربية ، والعلمية ، الأدبية والثقافية ....

فقيم العدل والرحمة والتعاون والبر والمحبة أخلاق تحرص عليها الحضارة الإسلامية وتعمل على إشاعتها في المجتمعات الإسلامية في شتى مناحي الحياة ، وقيم : الظلم ، والقسوة ، والأثرة ، والعدوان ، والكره ... أخلاق محرمة بل مُجَرَّمة في الحضارة الإسلامية تعمل على القضاء عليها في شتى مناحي الحياة .

وفيما يل سنحاول بيان ذلك .

خصائص الحضارة الإسلامية

أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية:

١ - الوحدانية المطلقة في العقيدة :

لقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فقد نادت بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعيد، وهو وحده الذي يُقصد وهو الذي يعز ويذل، ويعطي ويمنح، وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.

كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهي خلوها من كل مظاهر

الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحُكْم والفن والشعر والأدب، إن الإسلام الذي أعلن الحرب على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظماء والصالحين والأنبياء والفاتحين.

٢ – إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة :

وثاني خصائص حضارتنا أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه، في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

[الحجرات: ١٣]

إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عِقْدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدَّمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

٣ – مراعاة المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا :

وثالث خصائص حضارتنا أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها ، وهي لم تتخل عن هذه المبادئ قط ، ولم تجعل وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد، ففي

الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب وفي السلم وفي الاقتصاد وفي الأسرة، روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًّا بعيدًا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

٤ – الإيمان بالعلم في أصدق أصوله :

الحضارة الإسلامية حضارة تؤمن بالعلم في أصدق أصوله ، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها ، فهي تخاطب العقل والقلب معًا ، وتثير العاطفة والفكر في وقت واحد .

وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظامًا للدولة قائمًا على مبادئ الحق والعدالة، مرتكزًا إلى الدين والعقدية دون أن يقيم الدين عائقًا ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة .

إن الحضارة الإسلامية لا يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس " وايْمُ اللهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنتَ مُحمدٍ، سَرَقَت لَقطَعَ مُحمدٌ يَدَها " [متفق عليه]

هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني .

٥ - التسامح الديني :

وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله لا يبدو عجيبًا إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحَّها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه. إن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحًا وعدالة ورحمة وإنسانية ! وحسبنا أن نعرف أن حضارتنا تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد ولكنها كانت للأديان جميعًا . (١)

الشواهد الواقعية على الحضارة الإسلامية

لقد تركت حضارتنا الإسلامية آثارًا خالدة في مختلف النواحي العلمية والخلقية وغيرها، وحققت دورًا عظيمًا في تأريخ تقدم الإنسانية، وخلّفت آثارًا بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه المدنيات الحديثة، وليس هذا من المبالغة في شيء، ولا ضَرْبًا من التفاخر الكاذب والادعاء

---

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

المذموم، بل سِجلّ التأريخ بأحرف من ذهب ومداد من نور، وإليك بعض الشواهد الواقعية والنماذج الحية من تأريخ حضارتنا المشرق الوضاء، الذي ينضح عدلاً ورحمة وإنصافًا حتى مع المُخَالف .

ففي نزعة حضارتنا الإنسانية يُعلن الإسلام المبدأ الإنساني الخالد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] لينقل الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية، والتفرقة والعصبية، والتمييز العنصري إلى المساواة والتعاون الذي لا أثر فيه لاستعلاءٍ عرقي أو عنصري، ويتجلى ذلك في مبادئ حضارتنا وتشريعاتها وواقعها.

وقد زخرت كتب السير والتأريخ بوقائع كثيرة، هذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، يرى مرة في السوق شيخًا كبيرًا يسأل الصدقة، وكان يهوديًا من سكان المدينة، فيسأله (عن حاله، وإذا بعمر المسلم الإنساني الملهم يقول له: " ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك شيخًا " وأخذ بيده إلى بيته، فقدم له من طعامه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال أن افرض له ولأمثاله ما يغنيه ويغني عياله.

هذا من شواهد الروعة الحضارية في تأريخ أمتنا المجيد.

وفي مجال النظرة إلى المُخَالِف أعلنت حضارتنا الإسلامية مبدأ الإنصاف، وحسن التعامل، والدعوة إلى الله بالحسنى، مؤكدة الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٣٦] مع الحرص على مبدأ الحوار والإقناع ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿ وَلاَ تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلاَّ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] مع التأكيد على الأخذ بقاعدة سد

الذرائع في عدم سبّ آلهتهم، حتى يكون لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، والحرص على المصاحبة بالمعروف، وحسن الجوار، وكريم المعاملة، فقد كان لرسول الإسلام ﷺ جيران من أهل الكتاب، فكان يزورهم ويتعاهدهم ببره، ويقبل هداياهم، وما كتاب أمير المؤمنين عمر لأهل إيليا، وإعطاؤهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأماكن عباداتهم، وإجابتهم لاشتراطهم أن لا يساكنهم فيها يهودي إلا أنموذج رائعٌ يحمل مغزى عميقًا في آثار حضارتنا الإسلامية، مما دعا كثيرًا من منصفيهم إلى الاعتراف بأن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وثمة جانب مشرق في حضارتنا الإسلامية ألا وهو جانب أخلاقنا الحربية، فقد أشرقت شمس حضارتنا والعالم كلُّه تحكمه شريعة الغاب، حتى تردّى إلى عالم الوحوش الكاسرة، فوضعت حضارتنا الضوابط الحربية محرِّمة الحرب للنهب والسلب، وإذلال كرامة الشعوب، وسحق المجتمعات، وجعلت لها غايات نبيلة، منها الدفاع عن عقيدة الأمة وأمن المجتمع وردّ عدوان المعتدين ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَاَ تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَاَ يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] فالحرب لا تنسينا مبادئنا، ولذلك جاءت الوصايا الكريمة حينما يشتد الوطيس: " لا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا شيخًا ولا وليدًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له " ، جاء هذا في وصية أبي بكر الصديق حينما أنفذ جيش أسامة رضي الله عنهما.

وأبلغ من هذا رسول الإسلام ، يخرج من معركة أحد جريحًا قد كُسرت رَباعيته، وشُج وجهه، فيقول له بعض الصحابة رضي الله عنهم: لو

دعوت عليهم يا رسول الله، فقال: " لمَّا كُسِرتْ رُباعيَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ وشُجَّ في جبهتِه فجعلت الدِّماءُ تسيلُ على وجهِه قيل : يا رسولَ اللهِ ، ادعُ اللهَ عليهم فقال ﷺ: " إنَّ اللهَ تعالَى لم يبعثْني طعَّانًا ولا لعَّانًا ، ولكن بعثني داعيةً ورحمةً ، اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون " [رواه البيهقي في شعب الإيمان] وهكذا قال يوم الفتح: " يا معشرَ قريشٍ ما ترَونَ أنِّي فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريمٍ ، فقال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ " ورأى في بعض غزواته امرأةً مقتولة فغضب وقال: " ألم أنهكم عن قتل النساء؟! ما كانت هذه لتقاتل" .

ويمضي تأريخنا المجيد مسجلاً هذه الروائع، ففي حروب التتار وقع بأيديهم كثيرٌ من أسرى المسلمين وأهل الذمة، فتدخل ابن تيمية في فك الأسرى، فأجابه الوالي إلى فكّ أسرى المسلمين فقط، فأبى الشيخ ذلك، وقال: "لا بد من افتكاك الجميع، من أهل ديننا وأهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة"، وهكذا تعامل حضارتنا الأسرى من المسلمين وغيرهم .

ولما فتح صلاح الدين رحمه الله بيت المقدس كان فيها ما يزيد على مائة ألف من غير المسلمين فبذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج منها لقاء شيء يسير يدفعه المقتدرون منهم، ومن لا يقدر من الفقراء ففداؤه عليه رحمه الله . (١)

* * *

(١) الشيخ عبد الرحمن السديس نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

آثار الحضارة الإسلامية في تاريخ الإنسانية

إنَّ الحضَارَات إنَّما تخلُد بمقدار ما تُقدمه في تاريخ الإنسانيَّة من آثار خالدة في مُختلف النَّواحي الفِكرية، والخلقية، والمادية، والحَضَارة الإسلامية أدت دورًا خطيرًا في تاريخ التقدُّم الإنْسَاني، وتركت في ميادين العقيدة والعلم، والحكم والفلسفة، والفن والأدَب وغيرها – آثارًا بعيدة المدى، قويةَ التأثير فيما وصلت إليه الحَضَارة الحديثة، فما الآثار؟ وما أهميتها؟

نستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين أربعة رئيسة:

أولاً : في ميدان الفلسفة والعلوم .

أفاقت أوروبا في عصورها المظلمة على صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرِّسون هذه العلوم في مساجد إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها، وكان روَّاد الغَربيين الأُول بمدارسنا شديدي الإعجاب والشغف بكُلِّ ما يستمعون إليه من هذه العلوم، في جوٍّ من الحرِّية لا يعرفون له مثيلاً في بلادهم؛ ففي الوقت الذي كان فيه علماؤنا يتحدَّثون في حلقاتهم العلميَّة ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويَّتها، وحركات الأفلاك والأجرام السماويَّة – كانت عقول الأوروبيين تمتلئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كُلِّها؛ ومن ثَمَّ ابتدأت عند الغَربيين حركة التَّرجمة من العَربية إلى اللاتينية، وغدت كُتُب علمائنا تُدرَّس في الجامعات الغَربية؛ فقد تُرجم كتاب (القانون) في الطبِّ لابن سينا في القرن الثاني عشر، كما تُرجم كتاب (الحاوي) للرَّازي – وهو أوسع من القانون وأضخَم –

في نهاية القرن الثالث عشر، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوروبية حتَّى القرن السادس عشر، أمَّا كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك، ولم يعرف الغَرب فلسفة اليونان إلاَّ عن طريق مُؤلفاتنا وترجماتنا، ومن هنا يعترف كثير من الغَربيِّين المُنصفين بأنَّنا كنا في القرون الوسطى أساتذة أوروبا مدةً لا تقل عن ستمائة سنة .

يقول العلاَّمة المستشرق "سيديو": "كان العَرب وحدَهم حاملين لواءَ الحَضَارة الوسطى، فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غاراتُ قبائل الشمال، وسار العَرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة، فلم يقفوا عند حدِّ ما اكتسبوه من كُنُوز المعرفة، بل وسعوه وفتحوا أبوابًا جديدة لدرس الطبيعة"، ويقول أيضًا: "والعَرب حين زاولوا علم الهيئة عُنُوا عناية خاصَّة بالعلوم الرياضية كلِّها؛ فكان لهم فيها القدح المعلَّى، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة " .

ويقول "هومبلد" في كتابه عن الكون: "والعَرب هم الذين أوجدوا الصَّيْدَلَةَ الكيماوية، ومن العَرب أتت الوصايا المُحكَمة الأولى التي انتحلتها مدرسة (ساليرم) فانتشرت في جنوب أوروبا بعد زمَن، وأدَّت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فنُّ الشفاء إلى دراسة علم النبات والكيمياء في وقت واحدٍ، ومن طريقين مُختَلِفين، وبالعَرب فُتِحَ عهدٌ جديد لذلك العلم " .

ويقول "سيديو" عن الرَّازي وابن سينا: " إنَّهما سيطرا بكُتُبهما على مدارس الغَرب زمنًا طويلاً، وعُرف ابن سينا في أوروبا طبيبًا؛ فكان له على مدارسها سلطان مطلق مدَّة ستة قرون تقريبًا، فتُرجِم كتابه (القانون) المشتمل على خمسة أجزاء، وطُبع مرات عدَّة ؛ لِعَدِّه أساسًا للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا " .

ثانياً : في ميدان اللُّغة والأدَب:

فقد تأثر الغَربيُّون – خاصَّة شعراء الإسبان – بالأدَب العَربي تأثرًا كبيرًا؛ فقد دخل أدب الفُرُوسيَّة والحماسة، والمجاز والتَّخيُّلات الراقية البديعة إلى الآدَاب الغَربية، عن طريق الأدَب العَربي في الأندَلس على الخصوص؛ يقول الكاتب الإسباني المشهور "أبانيز": "إنَّ أوروبا لم تكن تعرف الفُرُوسيَّة، ولا تدين بآدابها المرعيَّة، ولا نخوتها الحماسيَّة قبل وفود العَرب إلى الأندلس، وانتشار فُرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب".

ومِن عباقرة الأدَب في أوروبا في القرن الرابع عشر وما بعده – مَن لا يُشَكُّ أبدًا في تأثير الآدَاب العَربية على قصصهم وآدابهم؛ ففي سنة ١٣٤٩هـ كتب "بوكاشيو" حكاياته المُسماة بـ "الصباحات العشرة"، وهي تَحذو حذو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته "العبرة بالخواتيم"، كما اقتبس لسنغ الألماني مسرحيته "ناتان الحكيم".

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه؛ فقد لَقِيَه في إيطاليا، ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (حكايات كانتربري).

أما (دانتي)، فيؤكد كثيرٌ من النُّقاد أنَّه كان في (القصَّة الإلهيَّة) – التي يصف فيها رحلتَه إلى العالم الآخر – متأثرًا برسالة الغفران للمعرِّي، ووصف الجنة لابن عربي.

وقد تأثرت القصَّة الأوروبيَّة في نشأتها بما كان عند العَرب من فنون القصص في القُرُون الوسطى، وهي المقامات، وأخبار الفُرُوسيَّة، ومُغامرات الفرسان في سبيل المجد والعِشق، وكان لألف ليلة وليلة –

بعد ترجمتها إلى اللُّغات الأوروبيَّة في القرن الثاني عشر - أثرٌ كبيرٌ جدًّا في هذا المجال؛ حتَّى إنها طُبعت منذ ذلك الحين حتَّى الآن أكثر من ثلاثمائة طبعَة في جميع لُغات أوروبا؛ حتى لَيرى عددٌ من النُّقاد الأوروبيين أن رحلات (جليفر) التي ألَّفها (سويفت)، ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألفها (ديفوه) - مدينة لألف ليلة وليلة، ولرسالة "حي بن يقظان" للفيلسوف العَربي ابن طفيل.

ولا حاجة بنا إلى أنْ نذكر ما دَخَل اللُّغات الأوروبية على اختلافها منْ كلمات عربيَّة في مُختلف نواحي الحَيَاة؛ حتَّى إنها لتكاد تكون كما هي في اللُّغة العَربية: كالقطن، والحرير الدِّمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصِّفر، وغيرها مِمَّا لا يُحصى.

ثالثاً : في ميدان التَّشريع:

فقد كان لاتِّصال الطُّلاب الغَربيِّين بالمدارس الإسلاميَّة في الأندلس وغيرها - أثرٌ كبيرٌ في نقل مجموعة من الأحكام الفقهيَّة والتشريعيَّة إلى لُغاتِهم، ولم تكن أوروبا في ذلك الحين على نظام مُتقن ولا قوانين عادلة؛ حتَّى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجمَ أشهر كُتُب الفقه المالكي إلى اللُّغة الفرنسيَّة، ومن أوائل هذه الكتب "كتاب خليل" الذي كان نواة القانون المدني الفَرَنسي، وقد جاء مُتشابهًا إلى حدٍّ كبير مع أحكام الفقه المالكي، يقول العلامة "سيديو": "والمذهب المالكي هو الذي يستوقفُ نظرنا على الخُصُوص؛ لما لنا من الصِّلات بعرب إفريقيَّة، وعهدت الحُكُومة الفرنسيَّة إلى الدكتور بيرون في أن يُترجم إلى الفرنسيَّة كتاب "المختصر في الفقه"، للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢م".

رابعًا: في مفهوم الدَّولة وعلاقة الشَّعب بالحكومة:

فقد كان العالم القديم والوسيط يُنكر على الشَّعب حقَّه في الإشراف على أعمال حُكَّامه، كما يجعلون الصِّلة بينه وبين الحاكم صلةً بين العبد وسيِّده، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرَّف بالشَّعب كما يشاءُ، وكانت المملكة تُعدُّ ملكًا خاصًّا للملك تُورثُ عنه كما تورث بقيَّة أمواله، ويستبيحون من أجل ذلك أن تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المُطالبة بحصة أميرة في العرش، أو للخلاف على ميراث الأصهار.

أمَّا العلاقة بين الأمم المُتحاربة، فهي استباحة الغالب لكُلِّ ما في يد المغلوب، وما في وطنه من مال وعِرض وحُرِّية وكرامَة، وظَلَّ الأمر كذلك حتَّى قامت الحَضَارة الإسلاميَّة تعلن فيما تعلن من مبادئها: أن الشَّعب هو صاحب الحقِّ في الإشراف على حُكَّامه، وأن هؤلاء ليسوا إلاَّ أُجَرَاء يسهرون على مصالح الشَّعب وكرامَته بأمانة ونزاهة، وفي هذا يقع لأول مرَّة في التَّاريخ أن يحاسب فردٌ من أفراد الشَّعب حاكمَه عما يلبس، من أين جاء به؟ فلا يحكم عليه بالإعدام، ولا يُقاد إلى السجن، ولا يُنفَى من الأرض، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتَّى يقتنع ويقتنع الناس، ولأول مرَّة في التَّاريخ يقول أحد أفراد الرَّعيَّة لحاكمِه الأكبر: السَّلام عليك، أيُّها الأجير، فيعترف الحاكمُ بأنَّه أجير الشَّعب، عليه ما على الأجير من حقِّ الخدمة بإخلاص، والنصح بأمانة، أعلنت الحَضَارة الإسلاميَّة هذا فيما أعلنته وطبَّقته بعد ذلك، فما هي إلا نسمة الحرية والوعي تهبُّ في الشعوب المجاورة للمُجتمع الإسلامي، فتتململ، ثم تتحرَّك، ثم تثور، ثم تتحرَّر.

وكان مما أعلَنَتْه حَضَارتنا في حُرُوبها: احترام العهود، وصيانة العقائد، وترك المعابد لأهلها، وضمان حُرِّيات النَّاس وكرامتهم، فأثارت

في الشُّعوب المغلوبة لحكمها روح العِزَّة والكرامة، ونبهت فيهم معاني الإنْسَانية الكريمة العزيزة .

وكان في التَّاريخ لأول مرَّة أن يشكوَ والدُ مغلوبٍ الحاكمَ الغالبَ إلى رئيسِ الدَّولة الأعلى، من أنَّ ولدَ الحاكمِ قد ضرب ولده الصَّغير خفقتَين بالسَّوط على رأسه من غير حق، ويغضب رئيس الدَّولة الأعلى، ويحاسب ولد الحاكم ويقتَص منه، ويقرع الحاكم ويؤنبه، ويقول له: "متى استعبدتم النَّاسَ وقد ولدتهم أمَّهاتُهم أحرارًا؟!".

إنَّ هذه روح جديدة تبعثُها حَضَارتُنا في الأفراد والشعوب.

وبعد، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحَضَارتنا في أربعة ميادين رئيسة، هي أبرز مظاهر الحَيَاة في الأُمَم والحضَارَات؛ ومن أجْل ذلك كان لنا – نحن أبناء هذه الحَضَارة – دَين على الشُّعوب التي حرَّرتها حَضَارتنا، يجبُ أن نستردَّه لا بالتَّفاخر الكاذب، ولا بالأماني والأباطيل، بل بمعرفتنا لقَدْر أنفسنا، وقيمة حَضَارتنا، وسُمُو تُراثنا، واستحقاقنا لأَنْ نكون الأمة الوسط التي تشهد على النَّاس، وتقودهم إلى الخير والحق والكرامة . [١]

أين الحضارة الإسلامية الآن ؟

لعل حجة المُسْتَخِفِّين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئًا إذا قِيست بروائع هذه الحضارة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم الحديث، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين:

الأول: أن كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي، وعنصر مادي. أما العنصر المادي فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما

---

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

سبقها، تلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، ولو جاز هذه لجاز لنا أن نزري بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا، لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه الحضارات السابقة قط، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها دائمًا وأبدًا .

أما العنصر الأخلاقي والروحي فهو الذي تخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغت فيه شأوًا لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلودًا.

إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب.

الثاني: أن الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي، ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية، شأنها في ذلك شأن المعارك والممالك، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث أعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئًا تافهًا، ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة .[١]

***

(١) د. مصطفى السباعي " خصائص حضارتنا " بتصرف نقلاً عن الشبكة الإسلامية .

تساؤلات حول الحضارة الإسلامية

تساؤلات العلمانيين

لـم تكـد تتحـدث عـن خـصائص الحـضارة الإسـلامية ومنجزاتهـا إلا داهمك العلمانيون بطوفان من الأسئلة ، والسخرية ، والتهكمات .

أيـن هـذه الحـضارة الإسـلامية الآن ؟!! ومـا مكانــة المـسلمين بـين الشعوب المتحضرة ؟!! وأين ما أنجزه المسلمون في كل تاريخهم مما وصل إليه غيرهم في حاضرهم ؟!! ...

ولا يعطيك العلمانيون فرصة الرد عن هذه الأسئلة بل يستأنفون قائلين لـم يكـن للمسلمين يومـاً حضارة إنمـا كـانوا دائمـاً عالـة علـى حـضارات غيرهم من الأمم . إن تمسك المسلمين بتراثهم الغابر ، وأفكارهم البالية سبب تخلفهم . ومـا دام المسلمون يتمسكون بـدينهم فلن يتقدموا بـداً ألا ترى كيف تقدَّم الغرب عندما تخلى عن دينه .

أسباب التقدُّم والتخلُّف في نظر العلمانيين

نعم لم يتقدَّم الغرب إلا بعدما طرح الدين وراء ظهره وأخذ في أسباب العلم المادي هذا حق ، ولكن الحق أيضاً أن الدين الذي طرحه الغرب والذي كان عائقاً دون التقدم العلميِّ والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلمية ! ليس هو ديـن الإسـلام الـذي يجعل العـلم ، بمفهومـه الـشامل ، فريـضة وأنـه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلمية .

إن الـذي أدَّى إلـى تخلف المسلمين لـيس تمسكهم بالـدين ، كمـا زعـم العلمانيون ، إنما هو الفهم الخاطئ لطبيعة الإنسان ، ولنظام الكون ، ولخصائص الدين الإسلامي .

فالإنسان ليس روحاً فقط كما فهم كثير من وعاظ الدين ، وليس عقلاً فقط كما فهم العلمانيون، وليس غرائز جنسية فقط كما فهم الفنانون ، إنما الإنسان : روح ، وعقل ، وجسد ، وقلب . ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] .

لقد خلق الله تعالى الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً ، وأنزل دينه متوازناً فإن طبق الإنسان دين الله في فهم نفسه وفى فهم الكون فإنه يحقق خلافة الأرض، وهى عبادة الله وتعمير الكون و تزكية النفس .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

[البقرة : ٣٠]

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] .

فالآية الأولى تبين مهمة الإنسان في الأرض وهى أن يكون خليفة في الأرض ، والآية الثانية تبين مفهوم هذه الخلافة وهى عبادة الله وتعمير الكون .

ولن يتحقق هذا إلا باتباع كتب الله تعالى ورسله .

فإن أخذ الإنسان منهج الله وطبقَّه على كون الله ومخلوقاته تناغمت حياته وحياة بقية الكائنات ، وكوَّن مع بقية الكائنات منظومة بديعة ، ويؤتيه الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران : ١٤٨]

وثواب الدنيا : السعادة ، والتقدم ، والظهور على الأعداء ...، وثواب الآخرة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

[التوبة : ٧٢]

وإن لم يفهم نفسه ، ولم يفهم دين الله أصبح نغمة شاذة وسط لحن قدسي عظيم فأتعس نفسه ، وأفسد حياته وآخرته . (١)

أسباب تخلُّف المسلمين في العصر الحديث

لقد تكاتفت عوامل كثيرة تسببت في ضعف الحضارة الإسلامية اضمحلالها ، وتخلف المسلمين وهوانهم .

وكما أن سبب تقدم المسلمين كما ذكرنا كان إخلاص العقيدة ، وحسن الخلق ، واستقامة السلوك ، والأخذ في أسباب العلم والتحضر فإن سبب تخلفهم كان ضعف العقيدة ، وسوء الخلق ، واعوجاج السلوك ، وإهمال العلم ، وهذا ما حذَّر منه النبي ﷺ فعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ، قُلْنَا : مِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : لا ، أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، يَنْزَعُ اللَّهُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ ، قِيلَ : وَمَا الْوَهَنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ. " [صحيح أبي داود] .

ولا يظنن ظانٌّ أن المقصود بكراهية الدنيا تركها والإعراض عنها بل ترك حبها والتعلق بها ، فالدنيا يجب أن تكون بأيدينا لا في قلوبنا كما بينا في الفصل السابق .

وسنحاول في الصفحات التالية ذكر الآفات التي أصابت المسلمين وأدت إلى تخلفهم ووهنهم .

الفصل بين الشعائر التعبدية وأخلاق الإسلام

هناك علاقة وثيقة بين العقيدة والعبادة وشريعة الإسلام بالأخلاق فالعبادات إن لم تثمر حسن خلق فإنها تُرَدُّ على صاحبها فالدين حسن

---

(1) انظر مقدمة كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية " للمؤلف .

الخلق ، والغاية من بعثة النبي ﷺ هي إتمام مكارم الأخلاق ، ولكن كثيراً من المسلمين في العصور المتأخرة فصلوا بين أدائهم العبادة وبين حسن الخلق واستقامة السلوك ، فمن يصلي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ومن يصوم لا يتقي الله في القول والعمل ، وإن تصدق فرئاء الناس ، وإن حج أو اعتمر فإنه يرجع من حجه وعمرته كيوم ذهب لا أثر لحج أو عمرة إلا إضافة لقب حاج إلى اسمه .

وبالقطع ليس العيب في العبادة إنما العيب فيمن يتظاهر بأدائها ولا يتحلَّى بأخلاقها ، ويفرِّط في ثمرتها .

التواكل والسلبية :

التوكل هو صدق التجاء القلب إلى الله جل وعلا بتفويض الأمر إليه بعد فعل السبب فالتوكل على ذلك يجمع بين شيئين: التفويض وفعل الأسباب وهو محمود في العقل والشرع .

أما التواكل فادِّعاء تفويض الأمر لله تعالى دون الأخذ في الأسباب بل يلجأ المتواكل إلى الاعتماد على الغير من المخلوقات، وهو عجز وضعف، وهو مذموم في العقل والشرع .

إن التواكل والسلبية أصبحتا من أهم سمات العربي وفي ذلك يقول د. أحمد عكاشة عن الشخصية العربية : " يتميز قطاع كبير من المصريين والعرب بسمات الشخصية الاعتمادية ، والسلبية العدوانية، والاستهوائية . وتتميز الشخصية الاعتمادية الاتكالية باعتماد شامل على الآخرين أو السماح بتولي مسئولية جوانب مهمة في حياة الشخص، وتسخير الاحتياجات الذاتية للآخرين الذين يعتمد عليهم الشخص ورضوخ غير مبرر لرغباتهم وعدم الاستعداد لمطالبة هؤلاء

الآخرين الذين يعتمد عليهم الشخص بأي مطالب حتى ولو كانت منطقية . (١)

والعجيب أن يزعم المتواكلون السلبيون أنهم متوكِّلون يرضون بقضاء الله وقدره ، وأنهم يطمعون أن ينالوا أجر الصابرين في الآخرة !!

والله تعالى حثَّنا على العمل فقال : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥] وقال تعالى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النَّجم: ٣٩ ، ٤٠] .

وعن عُمَر قَالَ : سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول : " لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَاناً " [رواه الترمذي وَقَالَ : حديث حسن] .

وحقُّ التوكُّل على الله تعالى يستوجب السعي والعمل والاجتهاد مع الإخلاص ، فمن يدَّعي التوكُّل على الله تعالى دون سعي وعمل واجتهاد وإخلاص فليس من التوكل في شيء وإنما هو اتكال أو تواكل حذَّرنا النبي ﷺ منه فإذا راعيت الأسباب فأنت مُتَوَكِّلٌ على الله، أما إذا تركت الأسباب فأنت مُتَوَاكِل، ولست مُتَوَكِّلاً والعلماء المحقِّقون يقولون: " ترك الأسباب جهل ، والاعتماد على الأسباب وأنَّها الفاعلة شرك " فترك الأخذ في الأسباب التي وضعها الله عز وجل وترك السعي والعمل والطمع في المخلوقين والاعتماد عليهم وانتظار النتائج من الخّلْق أو القَدَر والاتكال على الله أن يحقق له ما يريد دون عمل أو بذل جهد

---

(1) د. أحمد عكاشة رئيس الجمعية العالمية لعلماء النفس من مقال له في نشر في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠١ /٧/٦ .

جهل بحقيقة التوكُّل الذي هو من صفات المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] وهؤلاء المتوكلون حقاً ليس للشيطان قدرة عليهم ولا سبيلاً إليهم : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩] ومن صفات المتوكلين حقاُ الصبر على العمل والسعي ، والصبر على الابتلاء الذي لا قِبَلَ لهم بدفْعِهِ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤٢] ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢] والتوكل الحق من أسباب نصر الله وعدم خذلانه : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠] والتوكل الحق يستلزم التمسك بأوامر الله واجتناب نواهيه ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين وترك أذاهم ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ {يوسف:٦٧} ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب:٤٨] والتوكل الحق رضاً بنعم الله تعالى في الدنيا ، واستبشار بنعيم الله في الآخرة ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشُّورى:٣٦] هذا التوكل واجب على كل مؤمن ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨] .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب " رأى بعض الناس في المسجد بعد صلاة الجمعة فسألهم : مَنْ أَنْتُم؟ قَالوا: مُتَوَكِّلون، قَالَ: بَلْ أَنْتُم مُتَوَاكِلُون .. لا يَقْعُدَنَّ أَحَدُكُم عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ، وَيَقُولُ: اللهُمَّ ارْزُقْنِي،

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ السَّمَاءَ لا تُمْطِر ذَهَباً وَلا فِضَّةً، إنَّمَا يَرْزُقُ اللهُ النَّاسَ بَعْضَهُم مِنْ بَعْضٍ، أَمَا سَمِعْتُم قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠] ، وَعَلاهُم بِدُرَّتِهِ وَأَخْرَجَهُم مِنْ المَسْجِدِ ".

فلننظر إلى هذا الفهم الراقي للإسلام فهو دين العمل والإنتاج ؛ ولذا فإن من الواجب علينا أن نسعى ونتوكَّل على الله ونأخذ في أسباب الرزق فالله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلاق:٢ ، ٣]

ويقول جلَّ وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥] وغير ذلك من الآيات التي تدعونا إلى السعي وعمارة الأرض والسير في مناكبها .

إن الكثير من الناس حينما تنصحهم بهذه الآيات وتلك الأحاديث النبوية وما أكثرها والتي تحث على التوكُّل والأخذ في الأسباب تجدهم يُلقون بالعبء والخطأ على غيرهم حتى صار لدى كلِّ واحد منهم سلسلة من الأسباب التي لا تنتهي والأعذار التي لا تنقضي دون أن يرجعوا ولو قليلاً إلى أنفسهم وينظروا ماذا قدموا ؟ وماذا فعلوا لتغيير أحوالهم؟ وهل أخذوا حقاً في الأسباب وتوكَّلوا على ربهم حق التوكُّل؟ وهل أقبلوا على الله حق الإقبال ودعوه حق الدعاء؟ أم أنها الأوهام والأماني الكاذبة وتعليق الأخطاء على الآخرين. إننا نحتاج بصدق إلى السعي الجاد والعمل الدءوب،وعدم الاكتراث بإحباطات الآخرين، وقبول العمل مهما قلَّ في نظرنا ونظر الناس حولنا، فأول الطريق خطوة

فالمهم البداية، أما أن نجلس وننتظر أن تمطر السماء علينا ذهباً، فإن هذا لن يكون، فالسماء لا تمطر ذهباً !

إن عظيم الهمة لا يرضى بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالي الأمور ، ولا تهدأ نفسه إلا بالمنزلة العالية ، بل تتحدى همته ما يراه مستحيلاً ، وينجز ما ينوء به أولو القوة ويقتحم الصعاب والأهوال ، ويجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته ، وتحقيق بغيته ، لأنه يعلم أن المكارم منوطة بالمكاره ، وان المصالح والخيرات ، واللذات وكمالات لا يتوصل إليها إلا بالجهد والمشقة يقول أبو تمام :

بَصُرت بالرَّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَها ** تُنَالُ إلا عَلَى جِسْرٍ مِنْ التَّعَبِ

ولولا الهمم العالية ما تقدمت الأمم ، ولا اخترعت المخترعات ، ولا ابتكرت الآلات ، ولا تقدمت البشرية ، فكيف كان يمكن أن يصل إلينا الإسلام لولا رجال جاهدوا وارتفعت همتهم وعلت عزيمتهم فاجتازوا العقبات وتخطوا الصعاب وتكبدوا المشاق حتى نشروا الخير في كل مكان ؟ كيف كان يمكن أن يصل إلينا العلم والدين لولا أئمة علت همتهم فواصلوا الليل بالنهار يجمعون أطراف العلوم ؟

ولقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يحدث المؤمنين على رفع الهمة وارتياد معالي الأمور ، والتسابق في الخيرات ، والتحذير من سقوط الهمة والرضا بالدون .

فها هو القرآن الكريم يثني على أصحاب الهمم العالية وعلى رأسهم الأنبياء وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ حيث تجلت هممتم العالية في مثابرتهم ودعوتهم إلى الله تعالى الذي قال :﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف:٣٥]

وكذلك دعانا القرآن الكريم أيضاً إلى الهمة العالية والسعي نحو الفرق بين الإنسان الناجح والآخرين هو ليس نقص القوة، ولا نقص المعرفة، إنما نقص الإرادة .

كل شيء تحب أن تحصل عليه يجب عليك أن تدفع ثمنه، والثمن هو دائماً العمل، الصبر، الحب، التضحية في سبيل تحقيقه .

الناجحون في الحياة يفكرون بهذه الطريقة : إني أستطيع، سوف أحقق، إني قادر . بينما الفاشلون يفكرون بهذه الطريقة : كان لازم أن يكون الأمر كذلك، ليت الأمر كان كذلك، إني لا أستطيع أن كون كذلك .

إن الله تعالى يحب أصحاب العزائم القوية والهمم العالية ويعينهم ويوفقهم ، ويبغض أصحاب الهمم الضعيفة الذين يكتفون من كل شيء بأقله فعن سهل بن سعد قال رسول الله ﷺ " إنَّ اللهَ يُحِبُّ معاليَ الأمورِ ويكرَهُ سَفْسافَها " [صححه الألباني] .

وكان النبي ﷺ يتعوذ بالله من العجز والكسل " دخلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يومٍ المسجِدَ ، فإذا هوَ برجُلٍ منَ الأنصارِ ، يقالُ لَهُ : أبو أُمامةَ ، فقالَ : يا أبا أُمامةَ ، ما لي أراكَ جالسًا في المسجدِ في غيرِ وقتِ صَلاةٍ ، قالَ : همومٌ لزِمَتني ، وديونٌ يا رسولَ اللَّهِ ، قالَ : أفلا أعلِّمُكَ كلامًا إذا قلتَهُ أذهبَ اللَّهُ همَّكَ ، وقضى دينَكَ ؟ قلتُ : بلَى ، يا رسولَ اللَّه قالَ : قُل إذا أصبحتَ ، وإذا أمسَيتَ : اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ الهمِّ والحزنِ ، وأعوذُ بِكَ منَ العَجزِ والكسلِ ، وأعوذُ بِكَ منَ الجُبنِ والبُخلِ ، وأعوذُ بِكَ من غلَبةِ الدَّينِ ، وقَهْرِ الرِّجالِ ، قالَ : ففَعلتُ ذلِكَ ، فأذهبَ اللَّهُ همِّي ، وقَضى دَيني. "

سوء الظن واتهام الآخرين بغير بيِّنة

سوء الظن هو : هو امتلاء القلب بالظنون السيئة بالناس؛ حتى يطفح على اللسان والجوارح كما قال ابن القيم .

وهو التهمة والتخوين للأهل والأقارب والناس في غير محله كما قال ابن كثير .

ومن السلبيات التي فشت في الأمة وسببت تخلفها سوء الظن بالآخرين والمسارعة إلى اتهامهم ، ونقدهم النقد الهدَّام ، وتزكية النفس ووصفها بحسن الأفعال وتبرئتها من التهم وسوء الخلال ، فعند الخلاف ينسبون لأنفسهم الصواب دائماً ويرمون المخالفين لهم بالخطأ!

والاختلاف نوعان : اختلاف مذموم ، واختلاف محمود :

والاختلاف المحمود هو اختلاف التنوع الذي يبني ولا يهدم ، وينتقد ولا يجرح ، ويصوِّب ولا يعادي ، ويحسن الظن بالناس ولا يسيء .

الإسلام دين يدعو إلى حسن الظن بالناس والابتعاد كل البعد عن سوء الظن بهم ؛ لأن سرائر الناس ودواخلهم لا يعلمها إلا الله تعالى وحده، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ " إيَّاكُم والظَّنَّ ، فإنَّ الظَّنَّ أَكذبُ الحديثِ ، ولا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا ، ولا تحاسَدوا ولا تدابَروا ، ولا تباغَضوا ، وَكونوا عِبَادَ اللَّهِ إخوانًا " [متفق عليه]

فسوء الظن يؤدي إلى الخصومات والعداوات ، وتقطع الصلات . (١)

الاختلاف المذموم : هو اختلاف تضاد ، ويرجع إلى أسباب خلقية متعددة ، ومن هذه الأسباب :

١- الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي .

٢- سوء الظن والمسارعة إلى اتهام الآخرين بغير بيِّنة .

٣- الحرص على الزعامة أو الصدارة أو المنصب .

٤- اتباع الهوى وحب الدنيا .

٥- التعصَّب لأقوال الأشخاص والمذاهب والطوائف .

٦- العصبيَّة لبلد أو إقليم أو حزب أو جماعة أو قائد .

٧- قلَّة العلم في صفوف كثير من المُتَصَدِّرين .

٨- عدم التثبت في نقل الأخبار وسماعها .

وهذه الأسباب وغيرها من الرذائل الأخلاقية والمهلكات هي التي ينشأ عنها اختلاف غير محمود وتفرق مذموم . (٢)

النقد الهدَّام

النقد من طبيعة النفس البشرية، فهي مجبولة على رفض ما تراه مخالفاً لما يناسبها ويناسب هواها، ومن كمال قدرة الله تعالى أن جعل الخلاف بين البشر قائماً إلى قيام الساعة .. وإذا اختلفت النفوس فلا بد من نقد بعضها بعضاً، وهذا النقد منه ما ينفع ومنه ما يضر، فالنقد النافع هو الذي يراد منه تصحيح الخطأ، وتعديل المسار حتى يعود إلى

---

(1) د. بدر عبد الحميد هميسة " حسن الظن بالناس " موقع صيد الفوائد .

(2) علي بن نايف الشحود " الخلاصة في أصول الحوار وأدب الخلاف " موقع جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات "

مكانه الصحيح، وهو ما يعبر عنه بالنقد البنَّاء، والنقد الضار هو ما كان لمجرد النقد والتشفِّي وحب النقد ذاته لا غير، وليس من ورائه أي مصلحة، بل فيه من المفاسد الشيء الكثير، وهو ما يعبر عنه بالنقد الهدَّام، فالنقد الهادف والبناء هو ما يراد منه تحسين الشخصية وإعطائها دافعاً للتقدم للإمام دون تجريح أو تقليل من شأن هذه الشخصية وذلك لتبين لهذه الشخصية الأخطاء الذي وقعت فيه لتحاشيها في المستقبل ويعتمد أسلوب النقد هذا على عدة عوامل منها اختيار الأسلوب اللائق للنقد واختيار الكلمات بدقة متناهية وذلك لجعل الطرف الآخر يتقبل نقدك بصدر رحب .

والنقد الهدام أو الانتقاد ينبع من الغضب والكراهية للشخصية المراد نقدها وهي عكس النقد البناء فلا أسس لها ولا هدف إلا تحطيم من أمامك وإشعاره بضآلة حجمه وذلك بغرض الانتقام من هذا الشخص لسبب ما .

والنقد الهدَّام على مر العصور يظهر فقط عند سقوط الأمم في عصور الاضمحلال والضعف أما النقد البنَّاء يكون دعم ووسيلة لبناء الدولة القوية التي نحلم بها جميعاً فالشك هو وسيلة للوصول إلى اليقين لكن إذا كان شكّاً له أدلَّة وبراهين وليس لمجرد الشك في حد ذاته ، لقد أصبحنا نسمع أن فلاناً سارق وهذا عميل وهذه تحمل أجندة أجنبية وحتى وإن اتضح أنه لا يوجد أي أدلَّة واتضح بطلان تلك الادعاءات ، لا نسمع عن نفى هذا الكلام لكننا نسمع عن التُّهم نفسها فقط وقد توقفت كثيراً عند مقولة للدكتور أحمد زويل : " الأوروبيون ليسوا أذكى منا ولكنهم يقفون ويدعِّمون الفاشل حتى ينجح ، أما نحن فنحارب

الناجح حتى يفشل" وبكل صدق اتفق تماماً مع هذه المقولة وأتمنى ألا نكون هكذا وأن نقف وراء كل إنسان حتى يقف على قدميه لأنه بالتأكيد نجاحه سيكون نجاحا لنا جميعا. (١)

وكثير منّا يجيد فن اتهام الآخرين ، أما اتهامُ النفسِ والشجاعةُ في مواجهتِها ومصارحتها فآخر ما يفكر به .

وليعلم هؤلاء المتخلفون الجهلاء أن السلطة الوحيدة التي تملك حق اتهام الآخرين على وجه هذه الأرض هي السلطة القضائية وذلك بناء على قرائن وشواهد محددة ، وفي الآخرة سلطة الفصل بين الناس فيما يعلمون لله تعالى وحده ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١] أما أن يتخيل جاهل متخلف أن في قدرته الحكم على الناس في الدنيا فهذا افتئات على سلطة القضاء ، والحكم على من يدخل الجنة ومن يهوي في الجحيم افتئات على الله تعالى .

إن هناك نماذج كثيرة من الناس ممن يجيد النقد على حساب العمل. إنه ينتقد رجال السياسة ، وينقد الدعاة إلى الله ، وينقد الشباب الصالحين ويجعل هذا النقد تكأة لقعوده ، وسلاحاً يشهره في وجه من يطالبه بأن يعمل ويقدم جهداً لنصرة دين الله عز وجل ، وبناء أمته .

وربما كان كثير مما يقوله له أصل من الصحة ، لكنه قد يكون مبالغاً فيه ، وهب أنه صحيح جملة وتفصيلاً ، فأين جهد هذا الناقد ؟ وأين عمله؟ فلو كان هذا المنتقد جادّاً لترك هذا الانتقاد أثره على نفسه وبذل جهده في تعويض ما يراه من تقصير من الآخرين . وكثير من هذه

---

(1) ياسمين سامي " ماذا تريد المعارضة " بتصرف بوابة روزاليوسف سبتمبر ٢٠١٣

الصور من الانتقاد يكون باعثها الدفاع عن النفس بهذه الحيل اللاشعورية ؛ فلو أنه أثنى على هؤلاء العاملين وجهودهم لكان ذلك يعنى الاعتراف بالتقصير، والشهادة على نفسه بذلك ، والاعتراف بالخطأ ثقيل على النفس ، فيهرب منه صاحبه إلى اتهام الآخرين وانتقادهم .

والانتقاد يجيده كثير ممن لا يجيدون العمل ، أو لا يطيقون الاستمرار فيه والصبر عليه .

والحقُّ أنه يستحيل قيامِ حضارة سليمة على قلوبٍ عليلة، وأنّه ما لم تستَقِم الضمائر وتَصفُ النِّيات فلن يكبحَ جماحَ البشر شيء، ولن تصلُح الأحوالُ ولن تنجَحَ الحضارات ولا الدعواتُ، ولن يمكِنَ بناء إنسان كبير دونَ أخلاقٍ متينة وجملة من الخلال تورِث الثقةَ وتبني الفرد الصالح.

فضيلة العفو

إن القاسية قلوبهم تجد القسوةَ في سلوكهم والجفاء في أخلاقهم، فعند هؤلاء مَيلٌ إلى اتِّهام الآخرين فلا يقبَلُ العذر، وفَرَح بافتضاحِ المخطئين مليءٌ بالشماتة، سوءُ ظنّ، بغيٌ وحسَد، أين هم من قول الله عز وجل: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] والعفوُ هو اليسير، أي : اقبَل اليسيرَ الممكن مِن أخلاقِ الناس وأعمالهم كما قال مجاهد رحمه الله ، اقبَل الأعذارَ، واسلك العفوَ والمساهلة، واترُكِ الاستقصاءَ في البحثِ والتفتيشِ عن حقائق بواطِنِهم، اصبِر على ذلك، واعفُ عن نقائصِهم وأخطائهم في الصحبةِ والجوار والأخذِ والعطاء لتمضي الحياةُ سهلةً ليّنة؛ لأنَّ الإغضاءَ عن الضعفِ البشري

والسماحَة في تعاملات الدنيا من أخلاقِ الكِبار تجاهَ الصغار والأقوياء تجاهَ الضعفاء، وهكذا كانَ النبيّ ﷺ لم يغضَب لنفسِه قطّ، فإذا كان في دينِ الله لم يقُم لغضَبِه شيء، كما أنَّ المسلم مأمورٌ بالإعراض عن الجاهلين وعدَمِ مجاراتهم في الخصامِ واللجاج؛ لأن ذلك يورِث الضغائن وينمّي الأحقادَ ويفسد القلوب، فإذا أطاشَ السفيه عقلَ الحليم فليستَعِذ بالله من الشيطان الرجيم.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ قَالَ كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ قَالُوا صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ قَالَ هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لا إِثْمَ فِيهِ وَلا بَغْيَ وَلا غِلَّ وَلا حَسَدَ " [رواه ابن ماجه والبيهقيّ بسند صحيح] .

إنَّ التغاضي والتغافُلَ عن أخطاء الآخرين من أخلاقِ الأكابر والعظَماء ودليلٌ على سموِّ النفسِ وشفافيّتها، ومن امتلأ قلبُه بالإيمان وصفَا من الأضغانِ فإنه سريع العفوِ والغفران، كوقفِ النبيّ الكريم يوسفَ عليه السلام حين قال لإخوته: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢] .

إنها أخلاقُ الأنبياء، لا تحمِل الحِقد ولا الشحناء، ولا تعرف الحسَدَ ولا البغضاء، وعلى نهجِهم سار الأتقياء الصالحون. (١)

* * *

(1) من خطبة صالح بن محمد آل طالب " سلامة الصدور " موقع المنبر .

معاصي القلوب والتخلف الحضاري

لم يكن التواكل والسلبية ، وسوء الظن واتهام الآخرين بلا دليل والنقد الهدَّام هي الصفات التي وَسَمَت الشعوب العربية فحسب بل لقد تفشَّت فيهم كل أمراض القلوب كالنفاق ، والرياء ، والكبر ، والحقد ، والحسد ، والغرور ، وحب الرياسة والجاه ، وحب المال .. وأمراض القلوب كثيرة وخطيرة وهي أشد فتكاً من أمراض الأبدان على الإنسان فأمراض الأبدان قد تورث توبة وإنابة إنما أمراض القلوب تورث الكفر والنفاق.

يقول الشيخ محمد الغزالي : " معاصي القلوب أخطر من معاص الجوارح وأخشى أن يكون ما ينتشر بيننا وبين غيرنا من عوج خاضع لهذا القانون ! لقد تذكرت حرب ١٩٦٧م التي خسر العرب فيها القدس وسيناء والجولان والضفة الغربية في حرب لم تدم إلا بضع ساعات ؟ .. ولو أن الذي قاد هذه الحرب أحد الخواجات لآثر أن يطلق على دماغه الرصاص واستحى أن يقابل أمته بهذا العار . لكن قائد الهزيمة عندنا عاد إلى قواعده سالماً ليكافئ من يقول له الحمد لله على سلامتك وليطارد من يقول له : كيف ألحقت بنا هذه الفضيحة . إن أوروبا لا تقبل أن يشيع فيها الانحراف الحيواني لا تقبل ولا يمكن أن تقبل أن يقع فيها هذا الانحراف الإنساني ، هذا هو الفرق بين الرذيلة عندنا وعندهم .. إن الكبر والحسد والافتخار بالنفس أو النسب أو المال ، وحب الخلاف وحب الظهور وحب السمعة ، والرغبة في التسلط والرغبة في هضم أولي الكفاية ، إن هذه الرذائل أشنع من ترك العنان للغريزة الجنسية تنطلق على النحو السيئ الموجود في ظل المدنية الحديثة ومن

هنا فإن خصومنا لن يضاروا كثيراً أو على عجل من عللهم كما نضار نحن المسلمين من آفات الرياء والكبرياء المبعثرة في كل ناحية . إن الإسلام – بداهة – عافية سابغة من أنواع العلل التي تستهلك النفوس ، والمجتمعات وهو يحارب صنوف المعاصي ويحصن أبناءه ضدها ." (١)

ومن أمراض القلوب : النفاق ، والرياء ، والكبر ، والحقد ، والحسد ، والغرور ، وحب الرياسة والجاه ، وحب المال ...

النفـاق

النفاق لغةً : إظهار الإنسان غير ما يبطن، وأصل الكلمة من النفق الذي تحفره بعض الحيوانات كالأرانب وتجعل له فتحتين أو أكثر فإذا هاجمها عدوها ليفترسها خرجت من الجهة الأخرى، وسمي المنافق بهِ لأنه يجعل لنفسهِ وجهين يظهر أحدهما حسب الموقف الذي يواجهه.

يقسِّم علماء الإسلام النفاق إلى نوعين هما:

نفاق اعتقادي: وهو النفاق الأكبر الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر. وهذا النوع مخرج من الإسلام وصاحبه مُخَلَّد في الدرك الأسفل من النار لقول القرآن : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء : ١٤٥] .

نفاق عملي: وهو النفاق الأصغر، وهو عمل شيء من أعمال المنافقين مع بقاء الإيمان في القلب، وهذا لا يُخْرج صاحبهُ من الإسلام، وهو يكون فيه إيمان ونفاق وإذا كثر صار بسببه منافقاً خالصاً. لقول النبي ﷺ" أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ

(1) الشيخ محمد الغزالي " هموم داعية " دار البشير للطباعة والنشر ص ٨١ .

كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"
[متفق عليه]

والنفاق هذا أخطر أمراض القلوب وأشدها فتكاً النفاق ويذكر الله تعالى لنا صفات المنافقين فيقول جل شأنه :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾
[البقرة : ٨ – ١٠]

والمنافقون مسلمون – في الظاهر – من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلساننا ويعيشون في أوطاننا لكن ولاءهم لأعداء الله والوطن ينفثون سمومهم في أجهزة الإعلام المختلفة : المسموعة والمرئية والمقروءة ، وفي الفنون المختلفة : أدب ، نحت ، رسم ، غناء ، تمثيل ، ويدَّعون أنهم مصلحون وتقدميون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون بل كثير منهم في زماننا مفسدون ويشعرون .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ١٢]

هؤلاء المنافقون هم الذين يستهزئون بشريعة الإسلام وبالمؤمنين فيرمونها بالرجعية ويرمون أهلها بالتخلف ، ويشككون في ثوابت الدين يشككون في العقائد كعذاب القبر ونعيمه ، ويشككون في الفرائض كفريضة الحجاب ، ويشككون في الشعائر كالذبح في عيد الأضحى ، ويتصيدون خطأ لعالم فيشنعون على كل عالم دين ، ويستغلون جهل متعالم مُدَّعٍ فيرمون به كل عالم متقٍ ... ويتاجرون في الأعراض والمنكرات فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

والعجيب عندما تناقشهم في أمور دينية يهاجمونها رغم أنها معلومة من الدين بالضرورة يقولون لك لا تزايد علينا في ديننا نحن نفهم الإسلام أكثر منك ولا نحتاج إلى من يعلمنا ديننا !!

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٤-١٦] .

هؤلاء هم العدو حقاً ولشدة خطورتهم خصهم الله تعالى بصورة كاملة ذكر فيها تعالى أهم نعوتهم ومنها .

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

[المنافقون : ٢- ٤]

هؤلاء هم السوس الذي ينخر في عقول الأمة ليفسدها ، وهم معاول هدم الفضيلة في المجتمع باسم الفن أو الأدب أو العلم ، هؤلاء المنافقون أضر على المسلمين من أعدائهم الشرقيين والغربيين ، هؤلاء بطانة السوء التي تفسد الراعي والرعية . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[آل عمران : ١١٨]

ولقد نجح هؤلاء في غيبة التدين الصحيح وحسن الدعوة إليه أن يغزوا الجامعات والإعلام والسياسة ، ووسائل الاتصال الاجتماعي ، والأعمال

المؤثرة في المجتمع ، ورغم قلة هؤلاء إلا أنهم ذوو تأثير كبير في إفساد المجتمع ومن ورائهم أعداء الله يدعمونهم ويسندون ظهورهم .

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا﴾
[النساء : ١٣٨ – ١٣٩]

هؤلاء المنافقون وراء كل دعوة لعُرْى وخلاعة ، ووراء كل إباحية وفجور ، ووراء كل تثبيط للهمم وتغييب للعقول ، ووراء كل دعوة لصرف المسلمين عن شريعة الله تعالى وهدى نبيه المصطفي ﷺ وشغلهم بتوافه الأمور .

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة : ٦٧] .

هؤلاء المنافقون أحفاد عبد الله بن أبى بن سلول تجدهم وراء كل مذهب فاسد ، وكل فن داعر ، وكل فاحش بذيء . ينصرونه ويؤيدونه وإن صدر ضده حكم قضائي .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ في الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النور : ١٩] .

ومهما توارى هؤلاء المنافقون وراء المسميات المختلفة ، والمذاهب المتباينة فإن أقوالهم وأعمالهم تشف عن حقدهم وضغائنهم .

فمن هؤلاء من يرى فحش القول أدباً ، والخَنَى فناً ، والتشكيك في ثوابت الدين حرية رأي ، وإثارة الفتن إصلاحاً ، وغثاء المرضى النفسيين إبداعاً ، وأحكام القضاء في هؤلاء ظلماً ...

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٠] .

أي لتعرفنهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها اللّه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وفي الحديث: "ما أسر أحد سريرة إلا كساه اللّه تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر" (١)
وما يخفي عن المؤمنين من أعمالهم تكفل الله تعالى بكشفه لذوى البصائر .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾
[محمد : ٢٩]

أي أيعتقد المنافقون أن اللّه لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمه ذوو البصائر، وقد أنزل اللّه تعالى في ذلك سورة فبين فيها فضائحهم، ولهذا كانت تسمى سورة " التوبة " الفاضحة .

فليحذر هؤلاء المنافقون من عقاب الله تعالى فإن مصيرهم أسوأ مصير أنهم أسوأ من فرعون وملئه ، ومن أبى جهل وحزبه إنهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيه أبداً .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾
[النساء : ١٤٥]

فالمنافق في الدرك الأسفل ؛ لغلظ كفره ، وتمكنه من أذى المؤمنين.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ

(١) ابن كثير في تفسير قوله تعالى { ولتعرفنهم في لحن القول) .

الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِى حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِى مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٣- ١٥] .

فليسارع هؤلاء بالتوبة قبل أن يأتي الموت بغتة فإن تابوا وأصلحوا فإن الله تعالى يتوب عليهم وهو التواب الرحيم .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
[النساء : ١٤٥- ١٤٦]

الريـاء :

الرياء ضد الإخلاص ، والإخلاص: أن تقصد بعملك وجه الله ، أما الرياء فمشتق من الرؤية وهو أن يعمل العمل ليراه الناس ، فالمرء إذا عمل العمل لينال ثناء الناس ومدحهم أو ليظهر تميزه على أقرانه أو غيرهم فهذا هو الرياء بعينه، والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١٠] .

ومن معاصي القلوب التي أصابت أمة الإسلام الرياء ، المرائي هو من يتظاهر بالصلاح على خلاف ما عليه ليكسب ثناء الناس وشكرهم، فالمرائي وإن كان يؤدى بعض العبادات الظاهرة ويقوم ببعض أعمال الخير فإنه لا يقصد بها وجه الله تعالى إنما يقصد بها وجه الناس أو يشرك مع الله تعالى الناس ولا ثواب للمرائي عند الله تعالى ؛ فالله جل وعلا لا يقبل إلا ما كان له خالصاً ومن الرياء سالماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالذي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

فمن عمل معروفاً رئاء الناس فقد أبطل صدقته وأفسد عمله حتى وإن كان جهاداً في سبيل الله .

أخرج أبو داود والنسائي والطبراني بسند جيد، عن أبى أمامة قال: " أنَّ رجلاً جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال : يا رسولَ اللهِ ,أرأيْتَ رجلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الأَجْرَ والذِّكْرَ ؟ فقال رسولُ اللهِ : ﷺ " لا شَيْءَ لهُ " فَأَعادَها ثلاثَ مراتٍ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ " لا شَيْءَ لهُ " , ثُمَّ قال ﷺ : " إنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إلاَّ ما كان لهُ خَالِصًا ,وابْتُغِيَ بهِ وجْهُهُ ".

ولقد ذكر النبي ﷺ أن أول من يحاسب ويسأل عن أفعاله ويدان ويسحب على وجهه ويلقى به في النار هم المراءون فمن قاتل أعداء المسلمين ، أو علَّم علماً أو قرأ القرآن أو أنفق صدقة يرجو وجه الناس والذكر فهو من أصحاب النار يصلاها مذموما مدحوراً .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ

عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ " [صحيح مسلم] .

وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء: " صُمْتُم وَصَلَّيْتُم وَتَصَدَّقْتُم وَجَاهَدْتُم وَقَرَأْتُم لِيُقَالَ ذَلِكَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ " ثم قالَ: " إِنَّ هَؤلاءِ أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّر بِهِم النَّارُ " .

فالرياء يبطل العمل ، وإن لم يتب عنه صاحبه فإنه يسلكه جهنم .

قال رسول اللّه ﷺ : " قَالَ اللَّهُ تبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ "

[أخرجه مسلم]

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة قال، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: " إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَشْرَكَ في عَمَلٍ عَمَلَهُ لِلَّهِ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ " [رواه أحمد وابن ماجه والترمذي] .

ولقد سمى النبي ﷺ الرياء الشرك الخفي " الشِّرْكُ الخَفِي أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ " [صححه الحاكم] .

أي يعمل العمل من أجل رجل ليثنى عليه أو يذكر عمله هذا للناس فيعرف به.

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ . فَقَالَ : أَلاَّ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِى مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ؟ " قَالَ ، قُلْنَ : بَلَى . فَقَالَ " الشِّرْكُ الْخَفِيُّ : أَنْ يَقُومُ الرَّجُلُ يُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ " [ابن ماجه بسند حسن] .

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من الشرك الخفي والعمل لغير وجه الله وأشفق على أمته منه .

قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِى الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ أَمَا إِنِّى لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلاَ قَمَرًا وَلاَ وَثَنًا وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً" [أخرجه ابن ماجه] .

والرياء من الأمراض الخطيرة التي تدمر المجتمع فلا عمل يعمل لوجه الله تعالى وإنما للتظاهر به من أجل المصلحة الخاصة ، ولا يكاد أحد يتولى منصباً حتى تنهال عليه التهاني والهدايا ممن يعرف وممن لا يعرف رياء من أجل الاستفادة من منصبه في قضاء مصالحهم الدنيوية، وبكثرة الرياء للرؤساء يستمرئونه ويصدقون أنفسهم أنهم عباقرة ولم تنجب الأرض أمثالهم فتأخذهم العزة بالإثم ويتكبرون على الحق فيفسدون . وإن أرادوا أن يولوا المناصب فهي من نصيب من رَاؤهم لا لذوى الكفاءات من المخلصين الذين يترفعون عن التملق والرياء .

ويعلمنا الرسول كيف نتقى الرياء أو الشرك الخفي .

عن أبى موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال : " أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ " فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : " قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ " [رواه أحمد والطبرانى] .

وقال ﷺ : " إنّ أخْوَفَ ما أخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ الرّياءُ يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ القيَامَةِ إذا جَزَى النّاسَ بأَعْمالِهِمْ اذْهَبُوا إلى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ في الدُّنْيا فانْظُروا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً " [أخرجه أحمد والبيهقى] .

الكذب

وأهم آفات اللسان الكذب فهو رأس كل مذموم وجماع كل شر فالكذب ينفي عن صاحبه الإيمان ويسلكه مع المنافقين والفجار ومآله إلى النار فلا يدخل الجنة كذاب .

" إيَّاكم والكَذِبَ ، فإنَّ الكذِبَ يهدي إلى الفُجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النارِ " [متفق عليه] .

وقد جعل النبي ﷺ الكذب أول صفات النفاق العملي فقال ﷺ " آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] وزاد في مسلم في رواية له " وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ " .

ومن الناس من يكذب ليُضْحِك غيره ويعد ذلك مِزاحاً بريئاً لا حرمة فيه ولا بأس ، والحقيقة أن المِزَاح إن كان يشتمل على كذب فهو حرام وتوعد النبي ﷺ صاحبه بالويل .
عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ : " وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ، فَيَكْذِبُ ؛ لِيَضْحَكَ بِهِ اَلْقَوْمُ، وَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ " [رواه الترمذى وقال حديث حسن] .
أما المِزَاح البريء الخالي من الكذب والفحش مباح ، وكان النبي ﷺ يمزح ويداعب ولا يقول إلا حقاً وصدقاً .
عن أبى هريرة قال: قالوا: يا رسولَ اللّه! إنك تداعبنا. قال: " إنِّي لا أَقُولُ إِلاَّ حَقًّاً " [رواه الترمذي وقال : حديث حسن] .

ومن النَّاس من يُمَنِّى طفله ويكذبه ، ويعده ويخلفه وهذا حرام أيضاً ويكتب على صاحبه كذبة .

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: جاء رسول الله ﷺ بيتنا وأنا صبى صغير، فذهبت ألعب فقالت أمي لي: يا عبد الله تعال أعطيك. فقال رسول الله ﷺ "ما أردت أن تعطيه ؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً قال: إما أنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة " [رواه أبو داود والبيهقي وأحمد] .

والمؤمن لا يكذب .

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل : ١٠٥]

وأخرج مالك والبيهقى عن صفوان بن سليم أنه قال : " قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا فَقَالَ نَعَمْ فَقِيلَ لَهُ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً فَقَالَ نَعَمْ فَقِيلَ لَهُ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا فَقَالَ لاَ " .

ومن أشد أنواع الكذب شهادة الزور فهي من أكبر الكبائر .

عن أبى بكرة قال : " قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبائِرِ ثَلاثًا، قَالُوا: بَلى يا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: الإِشْراكُ بِاللهِ وَعُقوقُ الْوالِدَيْنِ وَجَلَسَ، وَكانَ مُتَّكِئًا، فَقالَ أَلا وَقَوْلُ الزّورِ قَالَ فَما زَالَ يُكَرِّرُها حَتّى قُلْنا لَيْتَهُ سَكَتَ " [متفق عليه] .

الفرق بين الكذب والتكذيب :

وهناك فرق بين الكذب ، والتكذيب .

الكذب : إخبار بخلاف ما هو عليه في الواقع ، أما التكذيب : فهو الإنكار والجحود .

والكذب كبيرة من الكبائر كما بينا أما تكذيب الرسل ، وجحود رسالة الله فهو الكفر الصراح ، وتوعد الله تعالى صاحبه بالخلود في النار .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة : ٣٩]

﴿وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام : ٢٧] .

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف : ٣٦] .

والله تعالى يوم القيامة ينطق الجوارح بالحق ليشهدوا على الكاذبين المكّذبين الذين لا يسمح لهم بالقول ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٣ – ٨٥] .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات :٣٤ – ٣٦] .

وكان الإمساك عن الكلام من بين ما يصام عنه – كالطعام والشراب – في شريعة الأمم السالفة فخفف الله عن أمة محمد وجعل لهم الصوم إمساك عن الطعام وعن قبيح الكلام فقط .

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم : ٢٦] .

" عن ابن عباس : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام قلت: ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال ﷺ : " إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلا يَرْفُثْ وَلا يَجْهَلْ فَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ . وقال ﷺ : " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ " (١) .

(١) " تفسير القرطبى " لقوله تعالى {فقولى إنى نذرت للرحمن صوما }

الغرب والكذب

لقد أدرك الغرب أن الكذب رأس كل آفة ، وعماد كل انحراف خلقي واجتماعي فربُّوا أولادهم على الصدق ، وأباحوا لهم كل الفواحش إلا الكذب فهي أكبر الكبائر عندهم ، وقضية " كلينتون مع مونيكا لوينسكى خير شاهد على ذلك فلقد حوكم كلينتون وكاد أن يُقْصى عن الحكم لا بسبب فعله الفاضح مع مونيكا – فهذا أمر مباح ومعتاد في أمريكا – ولكن بسبب كذبه على المُحَلِّفين وإنكاره لهذه لحقيقة علاقته بها ، وإن اعترافه بعد ذلك هو الذي نجَّاه وأبقاه في السلطة .

وللأسف الشديد برغم أمر الإسلام بالصدق وتحذيره الشديد من الكذب – كما بينا – إلا أن المسلمين يكادون أن يكونوا وحدهم الكذَّابين في العالم ، فالكذب صفة متفشية في المجتمعات الإسلامية لا يكاد يسلم منها أحد – إلا من رحم الله – حاكماً أو محكوماً صغيراً أو كبيراً رجلاً أو امرأة !!! ، وأنا لله وإن إليه راجعون .

الكبر :

الكِبْر لُغَةً : العَظَمَة والتَّجَبُّر، كالكِبْرِياء ، والكِبْر في الاصطلاح الشرعي هو : ردُّ الحقِّ، واحتقار الخَلْق، والمُتَكَبِّر هو من يستعظم نفسه، ويستحسن ما فيه من فضائل، ويتعالى على من يجب التواضع لهم من الناس ويستصغرهم ، وهو ضد التواضع، الذي أمر الإسلام به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فالتواضع قبول الحقِّ ممن قاله، وعدم احتقار الخَلْق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه .

والكبرياء لا تكون إلا لله تعالى ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية : ٣٧] .

ومن نازع الله تعالى هذه الصفة من مخلوقاته جعل الله تعالى النار مثواه ﴿فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

[النحل : ٢٩]

وقالَ رَسُولُ الله ﷺ قالَ الله تَعالَى: " الْكِبْرِياء رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذفْتُهُ فِي النّارِ" [أخرجه مسلم] .

وفي بدأ الخليقة تكبَّر إبليس اللعين على السجود لآدم إذ أمره الله تعالى فَطُرِدِ من الجنة وحلَّت عليه لعنة الله تعالى .

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص : ٧١- ٧٨] .

فالشيطان إمام كل المتكبرين وهو الداعي إلى كل كبر على الله وخلقه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٨٢] .

ولقد توعَّد الله تعالى كل مُتَكبِّر بأن يصرفه عن آيات الله تعالى الدالة على قدرته ، ويعمى بصيرته عن الاهتداء إلى الحق ، ويسلكه طريق الشيطان .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

[الأعراف : ١٤٦]

ولقد توعَّد الله تعالى المتكبرين بالنار لأنهم تكبروا على الإيمان بالله وعبادته .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : ٣٥]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾
[غافر: ٦٠]

أما المؤمنون فإنهم لا يستكبرون على الله ولا على خَلْقِه .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة : ١٥] .

والكبر طريق الإنسان إلى النار قلَّ أو كَثُر فلن يدخل الجنة متكبر .

" لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْر "
[رواه مسلم]

ونهى النبي ﷺ عن الإطراء والمدح المفرط فيه حتى لا يؤدي ذلك إلى تكبر الممدوح .

سمع النبي ﷺ رَجلاً يُثنَي على رَجُلٍ ويُطرِيهِ فَقال النبي ﷺ : " أَهلَكتُم أَو قَطَعتُم ظَهَر الرَّجُل " [رواه البخاري] .

" قَطَعتُم ظَهَر الرَّجُل " أي أثقلتموه بالإثم، لأنه ربما حمله إطراؤهم له على العجب والكبر، وسلك سبيل المتكبرين، فيقع في الإثم الكبير الذي يقطع الظهر.

وكما ابتليت أمة الإسلام بالمتملقين ابتليت كذلك بالمتكبرين ، وربما كانت كثرة المُتملقين والمنافقين سبباً في انتشار المُتَكَبِّرين والمُتَجَبِّرين فقد يكون الإنسان متواضعاً مخلصاً محباً للناس مقدراً لمواهبهم وفضائلهم فإذا ما تولَّى منصباً والتف حوله بطانة المتملقين والمنافقين وراحوا يكيلون له المدح والإطراء ويزينون له سوء عمله ويحرضونه على الناصحين المخلصين والمعارضين الوطنيين الشرفاء فينقلب من

متواضع لمتكبر ومن متسامح لمتجبر ومن مصلح لمفسد ومن إنسان كان على استعداد أن يضحي بنفسه في سبيل وطنه إلى متألِّهٍ على استعداد أن يضحي بوطنه في سبيل نفسه .

والمتكبرون عامة مسئولون وغير مسئولين يتكبرون على الحق فلا يلتزمون به ولا يحتكمون إليه ، كما يتكبرون على من دونهم في الحسب والنسب ، أو العلم والمعرفة ، أو الصحة والقوة ، أو المنصب والعمل ، أو المتاع والمال ، أو أجاه والسلطان .

يتكبَّر الإنسان بحسبه ونسبه على من لا حسب لهم ولا نسب من عامة الناس بدلاً من التواضع لهم شكراً لله على هذه النعمة التي لا فضل له فيها ؛ فالإنسان لا يختار أبويه ولا عائلته كما أن كرامة الإنسان عند الله والناس بحسن عمله لا بعراقة نسبه .

يقول علي بن أبي طالب :

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدَباً   يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ

فَلَيْسَ يُغْنِي الحَسِيبَ نَسْبَتُهُ   بِلا لِسَانٍ لَهُ وَلا أَدَبِ

إِنَّ الفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا   لَيْسَ الفَتَى مَنْ يقولُ كان أبي

ويتكبر الإنسان بما أعطاه الله من مال وثراء على المحتاجين والفقراء بدلاً من شكر نعمة الله بإعطاء الفقراء والمساكين حقهم الذي فرضه الله تعالى عليه فالمال مال الله وما الإنسان إلا مستخلف فيه .

﴿ آَمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٧] .

﴿ وَآَتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آَتَاكُمْ ﴾ [النور : ٣٣] .

ويتكبر الإنسان بما أعطاه له من علم وما حصل عليه من شهادات وجوائز بدلاً من شكر الله على هذه النعمة بتعليم الناس ونفعهم قال

رسولُ اللهِ ﷺ : إنَّ اللهَ وملائكَتَه وأهلَ السماواتِ والأرضِ حتى النملةَ في جُحرها، وحتى الحوتَ ليصلُّون على مُعلِّمِ الناسِ الخيرَ "
[صحيح الترمذي]

ويتكبر الإنسان بما أعطاه الله من صحة وقوة على المرضى والضعفاء بدلاً من شكر لله تعالى ومساعدة الآخرين عن ابن عباس قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ لرجلٍ وهو يَعِظُه : " اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ: شبابَك قبل هِرَمِك ، وصِحَّتَك قبل سِقَمِك ، وغناك قبل فقرِك ، وفراغَك قبل شُغلِك ، وحياتَك قبل موتِك " [حسنه الحافظ العراقي] .

ويتكبر الإنسان بما أعطاه من مُلْك وسُلْطة على المحكومين والمرءوسين بدلاً من شكر الله تعالى بالقيام بمهام ما ولَّاه الله فيعدلُ في القضيةِ ، ويحكمُ بالسَّويَّةِ ، ويمشي مع الرعيَّة حتى لا ينزع الله منه الملك ويذله بعد عزٍّ ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] ولا يكون كفرعون ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤ – ٢٦] أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتكبرين في الدنيا .

والله تعالى يعلم نبيه ﷺ كيف يحدِّث بنعم الله عليه فيقول له ﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾
[الضحى : ٦– ١١]

فالآيات الثلاثة الأولى بيان لبعض نعم الله على النبي ﷺ فقد آواه من اليتم ، وهداه إلى الحق ، وأغناه عمن سواه ، وفي مقابل أنه آواه من

اليتم أمره بوجوب العطف على اليتامى والإحسان إليهم وعدم احتقارهم ، وفي مقابل هداية الله له إلى الحق بعد حيرته في الوصول إليه أمره بأن يجيب السائلين إلى ما طلبوا بلطف وإحسان ولا يبخل عليهم بهداية أو مال ولا يزجرهم ويغضبهم ، وهكذا علَّم الله نبيه أن جزاء الإحسان إحسان وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي وهكذا يكون دْأُبك مع نعم الله أن تشكر الله عليها وتنفق منها على خلْقِهِ ولا تبخل بها على محتاج إليها .

وليس معنى ذلك أن المُتكبِّر لا يكون إلا من فضَّله الله بنعمة على غيره فحسب بل إن هناك متكبرين ولا فضل لهم على غيرهم فالكِبْر متأصل فيهم وإن لم يكن عندهم ما يتكبرون به .

فعن أبي هريرة عنه قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : " ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ، وَلاَ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ " [رواه مسلم] . " العَائِلُ " : الفَقِيرُ .

وليس من الكبر أن يكون الإنسان حسن الثياب حسن الحذاء إنما الكبر هو إنكار الحق ، واحتقار الناس .

فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قَالَ : " لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ ! " فَقَالَ رَجُلٌ : إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً ، ونَعْلُهُ حَسَنَةً ؟ قَالَ : " إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ " [رواه مسلم] .

" بَطَرُ الحَقِّ " : دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ ، و" غَمْطُ النَّاسِ " : احْتِقَارُهُمْ.

الحسد

الحسد تمنِّى زوال النعمة عن المحسود . والإنسان دائماً طمَّاع لا يرضى بما قسمه الله له إنما هو دائماً يتمنَّى المزيد وينظر إلى ما في يد الآخرين يقول تعالى ﴿وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] لذا يحذرنا الله تعالى من تمنى زوال نعمة الله التي أنعم بها على عباده ويعلمنا أن نسأله تعالى أن يرزقنا هذه النعم دون تمنى زوالها عن أصحابها .

﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء : ٣٢] .

قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي ومجازي، فالحقيقي تمنى زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، وأما المجازى فهو الغِبْطَة وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة. والمراد بالحسد في هذا الحديث " لا حَسَدَ إلا على اثْنَتيْنِ : رجلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرآنَ فقام به آناء اللَّيل وَآنَاءَ النَّهارِ ، ورجلٌ أعْطاهُ اللَّهُ مالا ، فَهوَ يُنْفِقِهُ آنَاءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ " [متفق عليه]

الحسد هنا معناه المجازى أي لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما .[١]

إن أول جريمة قتل على الأرض كانت بسبب الحسد إذ حسد قابل أخاه هابيل أنْ تقبل الله القربان من أخيه ولم يتقبله منه هو فقتله حسداً من عند نفسه .

---

(١) المباركفورى " تحفة الأحوزى " باب ما جاء في الحسد .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَى يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِى إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة : ٢٧ – ٣٠]

والحسد لن يعود على صاحبه بنفع بل يأكل حسناته .

" الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَالصَّلاَةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ " [رواه أبو داود وابن ماجه] .

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من الحسد فإنه مفسدة للدين .

أَنّ النبي ﷺ قالَ: " دَبّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِى الْحَالِقَةُ ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدّينَ، وَالذي نَفْسِى بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنّةَ حَتّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتّفي تَحَابّوا، أَفَلاَ أُنَبّئُكُمْ بِمَا يُثَبّتُ ذَلِكَ لَكمْ: أَفْشُوا السّلاَمَ بَيْنَكُمْ " [رواه أبو داود والترمذى] ومعنى " تَحْلِقُ الدّينَ " أنها لا تُبقى شيئاً من الحسنات حتى تذهب بها .

إن الحسد مرض يصيب القلب فيمزقه ويفرى الكبد ويحرقه وعلى كل إنسان أن يتحصَّن بذكر الله وقرباته فلن يفلح معه حسد بل يُرَد كيد الحاسد إلى نحره .

وقديماً قال ابن المعتز

اصبرْ على كيدِ الحسودِ   الحسود فإن صَبْرَكَ قاتلهْ
فالنـارُ تأكلُ بعضـَها   إن لم تَجـْد ما تأكـلـُهْ

واعلم أن دواء الحسد الذي يزيله عن القلب معرفة الحاسد أنه لا يضر بحسده المحسود في الدين ولا في الدنيا وأنه يعود وبال حسده عليه في الدارين إذ لا تزول نعمة بحسد قط ، وإلا لم تبق لله نعمة على أحد حتى نعمة الإيمان لأن الكفار يحبون زواله عن المؤمنين؛ بل المحسود يتمتع بحسنات الحاسد لأنه مظلوم من جهة، سيما إذا أطلق لسانه بالانتقاص والغيبة وهتك الستر وغيرها من أنواع الإيذاء، فيلقى الله مفلساً من الحسنات محروماً من نعمة الآخرة، كما حرم من نعمة سلامة الصدر وسكون القلب والاطمئنان في الدنيا، فإذا تأمل العاقل هذا عرف أنه جرّ لنفسه بالحسد كل غم ونكد في الدنيا والآخرة . (١)

والحسد من الأمراض التي كثرت في الآونة الأخيرة فلا يتولى أحد منصباً إلا وقيل أنه من المحاسيب ، ولا تكاد تظهر نعمة على إنسان إلا واتهم بالرشوة والفساد ، ولا اغتنى رجل أعمال إلا وقيل أنه لص أو تاجر مخدرات ، وربما الدافع وراء هذا الحسد وإلقاء التهم من غير دليل كثرة المفاسد في المجتمع لدرجة أصبح الغنيُّ متهماً – في نظر الناس – حتى تثبت براءته .

حب الرياسة والجاه

تَرَأَّس علَى القَوْم : صَار رَئِيسًا عَلَيْهِم . أما الجَاهُ فهو : المنْزِلة والقَدْر.

حب الرياسة والجاه من الأمراض المستوطنة في مرضى القلوب ولقد ابتليت مصر ببعض الأغنياء الذين جمعوا أموالهم من تجارة المخدرات وتجارة السلاح ومن احتكار السلع وأكل أموال الناس بالباطل ، فلم

---

(١) الصنعانى " سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٢ .

يكتف هؤلاء بما جمعوا من أموال بل راحوا يزاحمون السياسيين ميدان السياسة ، وراحوا ينفقون الآلاف بل الملايين من أجل الوصول إلى عضوية مجلس النواب ، أو مجلس المحافظة ، أو المجلس المحلى ، مع أنهم ليس لهم أدنى مؤهلات سياسية حتى الاستماع إلى نشرة الأخبار وقراءة الصحف ! ويدعون – كذباً – أنهم ما رشحوا أنفسهم إلا من أجل خدمة المواطنين ولو أرادوا خدمة المواطنين حقاً لما جمعوا هذه الأموال من حرام ، لأنفقوها في نفع أبناء دائرتهم إنما هو حب الرياسة والجاه، إلى جانب الرغبة في استثمار الحصانة البرلمانية في خدمة مصالحهم الخاصة .

أعلمتم لماذا تسير الأحوال من سيئ لأسوأ ؟!

قال الإمام أبو حامد الغزالي: حب الرياسة والجاه من أمراض القلوب وهو من أضر غوائل النفس وبواطن مكائدها يبتلى به العلماء والعباد فيشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات وحملوها على العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة وطلبت الاستراحة إلى إظهار العلم والعمل فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ولم تعتقد باطلاع الخالق فأحبت مدح الخلق لهم وإكرامهم وتقديمهم في المحافل فأصابت النفس بذلك أعظم اللذات وهو يظن أن حياته باللّه وبعبادته وإنما حياته الشهوة الخفية وقد أثبت اسمه عند اللّه من المنافقين وهو يظن أنه عنده من المقربين . (١)

---

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج٣ ص ٢٧٥ .

وإن من شرع الإسلام أن طالب الولاية لا يُولَّى لأنه في الغالب ما طلبها إلا عن حب للرياسة وهوى في نفسه أما الذي يُولَّى هو ذو العلم والخبرة والصلاح والتقوى والزاهد في الوالية .

عن أبى موسى الأشعري قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقال أحدهما : يا رَسُول اللَّهِ أَمِّرْنا على بعض ما ولاك اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، وقال الآخر مثل ذلك فقال ﷺ : " إِنَّا وَاللَّهِ لا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ ، وَلا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

وعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ ، قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ ، لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا. " [متفق عليه]

والخلفاء الراشدون ما طلبوا الولاية إنما اختارهم كبار الصحابة ثم صدَّق الناس على هذا الترشيح بحرية كاملة وإليكم قصة بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

عن أنس قال: لما بُويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: .. إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أما بعد أيها الناس، فإنى قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني . (١)

---

(١) ابن كثير " السيرة النبوية " ج٤ ص ٤٩٣ .

فكبار الصحابة قد بايعوا أبا بكر في السقيفة – دون رغبة منه – ثم أعلن عمر هذا الترشيح في المسجد فصدَّق المسلمون عليه .

أما خلافة عمر فقد رشَّح أبو بكر عمرَ – دون رغبة منه – ولم يكن عمر من أهل أبى بكر إنما كان أولى الناس بالخلافة بعده وبايع الناس عمر وصدَّقوا على ترشيح أبى بكر له .

فلما طُعَن عمر جعل الخلافة في ستة نفر مات النبي ﷺ وهو عنهم راض ولم يجعل من بينهم ابنه عبد الله مع أنه لا يقل عنه تقوى وإيمان حتى لا يصير الحكم وراثيّاً ، واختار كبار الصحابة عثمان وبايعه المسلمون ، فلما قُتِل اختار المسلمون عليّاً بن أبى طالب .

وبعد على أصبح الحكم ملْكاً عضوضاً .

رُوِى عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: "الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً " [أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائي] .

" ملكاً عضوضاً " أي يُصِيبُ الرَّعيَّة فيه عسْفٌ وظُلْم، كأنَّهم يُعَضُّون فيه عَضًّا .(١)

والإسلام لا يشترط صورة بعينها لاختيار الحاكم ، المهم أن يُختار الأصلح وأن يبايعه غالبية الناس .

أما صورة اختيار الحكام في الوطن العربي ، قبل الربيع العربي ، فهي أبعد ما تكون عن الإسلام أو حتى عن الديمقراطية الغربية فمعظم حكام العرب جاءوا إلى الحكم إما عن طريق وراثته عن أسلافهم الغابرين أو بانقلابات عسكرية وهذا افتئات على حق الشعوب في اختيار من يحكمهم .

---

(١) ابن الأثير " النهاية في غريب الحديث " ج٣ ص ٤٩٤

ولقد جعل الله تعالى الجنة لمن لا يريد علوّاً في الأرض ولا يطمع في مناصب دنيوية لتحقيق مصالح شخصية .

يقول الله تعالى تعقيبا على قصة قارون .

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣] .

وروي أن النبي ﷺ قال في تفسير العلو في الأرض والفساد في هذه الآية الكريمة : "التجبر في الأرض، والآخذ بغير الحق "

[أخرجه المحاملى والديلمى]

فكم أولئك الذين تجَّبروا في الأرض وأخذوا السلطة بغير الحق من المسلمين!!

حب المال :

المال في اللغة: كل ما يقتنى ويحوزه الإنسان بالفعل سواء أكان عينًا أم منفعةً، كذهب أو فضة أو حيوان أو نبات أو منافع الشيء كالركوب واللبس والسكنى.

وحب المال غريزة متأصلة في الإنسان يولد بها ويشيب عليها ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف : ٤٦] .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ " [رواه البخاري] .

فالإنسان من طبيعته حب المال بل الحب الشديد للمال لا يقنع منه بالقليل ولا يكتفي منه بالكثير ولا يكف عن طلبه ولا يشبع منه مهما كثر. ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر : ٢٠] .

ورَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ " لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالاً لأَحَبَّ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلَهُ وَلا يَمْلأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ "
[رواه البخاري]
والمؤمن من يجاهد حب المال بالإكثار من الصدقة وبذل المال في وجوه البر حتى يكون من الأبرار .

﴿وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّـهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فالصَّدَقَة حجة ودليل قوى إلى إيمان المسلم وحبه لربه ورغبته في ثوابه فإن النفس مجبولة على حب المال، والشيطان يعد الإنسان الفقر ويزين له الشح والنفس تساعده ، فمخالفة النفس والشيطان من أقوى البراهين على حب الرحمن.[١]

قالَ رَسُولُ الله ﷺ : "الوُضُوءُ شَطْرُ الإيمانِ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ المِيزَانَ، وسُبْحَانَ الله والْحَمْدُ لله تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السّمَاوَاتِ والأرْضِ، والصّلاَةُ نُورٌ، وَالصّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلّ النّاسِ يَغْدُو، فبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا " [رواه أحمد والنسائى وابن ماجة وابن حبان]

ولقد وصف الله تعالى من يبرأ من البخل والشح ويروض نفسه على الإنفاق في سبيل الله بالفلاح .

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن : ١٦] .

---

(١) الإمام المناوي " فيض القدير ". ج١ ص ٦٢٠

والبخل مذموم في الشرع الحكيم بل مهلك صاحبه .

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء : ٣٧] .

والمال في الإسلام مال الله وما الإنسان إلا مستخلف فيه .

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد : ٧] .

ولقد توعد الله تعالى من يبخلون بمال الله على عباده بالعذاب الشديد.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

وفي تفسير قوله تعالى : " سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " روى البخاري: عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ له شُجَاعًا أقرعَ له زبيبتان، يُطَوّقُه يوم القيامة، يأخذ بلِهْزِمَتَيْه –يعني بشدقَيْه–يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنزكَ" ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ .

كما توعد الحق جل وعلا من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم وبان يحمى بما كنز في نار جهنم .

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٥]

ومن الناس من يظن أن كثرة المال نعمة وأن قلته نقمة ، والله تعالى قد بيَّن أنه يبتلى بالخير والشر فتنة ؛ فالغنَي ليس دليل رضا الله تعالى ولا صلاح العبد ، والفقر ليس دليل سخط الله تعالى ولا فساد العبد.

يقول تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر : ١٥ – ١٧] .

وإن من الناس من لا يسال الله تعالى إلا المال ويظن أن الغنى سعادة وفلاح ويعاهد الله على صرف المال في مصارفه الشرعية ، ويضرب لنا الحق جل وعلا مثالاً لهؤلاء فيقول :

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فلما آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة : ٧٥– ٧٧] .

ورغم وعيد الله تعالى للبخلاء ، وتهديده الشديد للكانزين إلا أن أغنياء المسلمين بعدما أفاض الله عليهم من نعيم ، وفجَّر آبار البترول في بلادهم أودعوا أموالهم بنوك أوربا وأمريكا ليحاربونا به بدلاً من استثمارها في البلاد العربية والإسلامية ! إن هؤلاء الأغنياء المُقتِّرين ضعاف العقل والدين ظنوا أن الثروات الطبيعية التي مَنَّ الله عليهم بها حقاً مكتسباً ، وأنهم أوتوها على علم عندهم كما قال قارون ﴿قَالَ إِنَّمَا

أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ ﴾ [القصص:٧٨] وكما قال غير قارون ممن فُتِنُوا بحب المال ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّمر:٤٩] ونسى هؤلاء وأولئك أو تناسوا أن المال مال الله وما هم إلا أمناء عليه ، وأنه يعطيه للناس فتنة ويوم القيامة الله سيسألهم عن هذه الأمانة أدوها أم ضيعوها .

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : ٧٦ – ٧٨] .

وكما أهلك الله تعالى قارون وكنوزه عندما بغى الفساد في الأرض وادَّعى أن علمه وجهده وحدهما هما سبب ما فيه من نعيم ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ ﴾ [القصص:٨١] أهلك الله تعالى أموال هؤلاء المسلمين الكانزين المترفين فاستولى عليها أعداؤهم وأعداء الإسلام وغزو بها بلادهم وبلاد الإسلام ، وساموهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفي ذلك بلاء من ربك عظيم، لعلهم يرجعون إلى

الله ، وبدلاً من صرف هذه الأموال على موائد القمار وعلى الراقصات ، والفاجرات يستثمرونها في البلاد العربية ويغنون فقراء المسلمين عن السؤال ومد يدهم لأعدائهم.

إن الدراسات الاقتصادية تقول : لو أن أغنياء المسلمين أدوا زكاة أموالهم ما وجدت محروماً ولا فقيراً ولا عاطلاً ولا سارقاً ولكن لما تهاون المسلمون بهذه الشعيرة جرى ما جرى ، إن أحدهم لينفق الملايين لوجه الشيطان ولا ينفق الملاليم لوجه الله تعالى ، وإن أنفق أبطل صدقته بالمن والأذى يقول الله تعالى في حق هؤلاء وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة:٣٤ ، ٣٥] .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال : قال رسول الله ﷺ " وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ. " [متفق عليه] .

والمال سوف يسأل عنها الإنسان مرتين يوم القيامة يقول النبي ﷺ " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ " [رواه الترمذي وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ] .

فهل اتقى أغنياء المسلمين الله في أموالهم وينفعون بها المسلمين قبل أن يأتي ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء:٨٨ ، ٨٩]

بَطَر النِّعمة وشكوى الفقر

بَطَر النّعمة : استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها يقول تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص : ٥٨] .

وهذه الآية الكريمة تقرر سنة باقية إلى يوم القيامة وهي أن بَطَر النَّعْمة، وعدم الشكر عليها، هو سبب هلاك الناس؛ وبالتالي على المسلمين أن يحذروا من البطر والأشر، وعدم الشكر على ما أنعم الله عليهم من نِعَم، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها، ويرون مساكن أهلها خاوية خالية، وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروي قصة البطر بالنعمة، وقد فني أهلها فلم يخلفوا أحداً، ولم يرثها بعدهم أحد.

إن الطمع والجشع وعدم الرضا أصاب قلوب كثير من المسلمين فجعل الله الفقر بين عينيهم فلا يغتنوا أبداً .

فعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال " مَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الآخِرَةَ جعلَ اللهُ تباركَ وتعالى الغِنَى في قلبِهِ وجَمَعَ لهُ شَمْلَهُ ونزعَ الفقرَ من بَيْنِ عَيْنَيْهِ وأتَتْهُ الدنيا وهيَ رَاغِمَةٌ فلا يُصْبِحُ إِلَّا غَنِيًّا ولا يُمسي إِلَّا غَنِيًّا ومَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الدنيا جعلَ اللهُ الفقرَ بين عَيْنَيْهِ فلا يُصْبِحُ إِلَّا فَقِيرًا ولا يُمسي إِلَّا فَقِيرًا " [صححه الألباني] .

وإذا قارن أفقر المسلمين اليوم بين ما أنعم الله عليه من رزق وبين ما كان عليه أفضل الخلق أجمعين ﷺ لما شكا الفقر أبداً .

ذكر عمر بن الخطاب ما أصاب الناس من الدنيا قال: " لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ " [رواه مسلم] الدَّقَل : أردأ التمر .

وعن أبى طلحة قال : " شَكَوْنَا إِلى رَسُولِ الله ﷺ الجَوعَ وَرَفَعْنَا عَنْ بُطُونِنَا عَنْ حَجرٍ فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ حَجَرَيْن " [رواه الترمذى]

أُنَاس مِنْ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فلم يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ أَعْطَاهُ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ مَا يَكُنْ عِنْدِى مِنْ خَيْرٍ لاَ أَدَّخِرْهُ عَنْكُمْ وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ " [متفق عليه]

ولو قارن هذا الذي يشكو الفقر دائماً ويترحم على أيام زمان لو قارن بين حياته – التي يشكو منها مُرَّ الشكوى – وبين حياة أبيه وجده لقبّل يديه ظهراً لبطن شكراً على نعم الله وآلائه ! فهل أدى هؤلاء الناس شكر النعمة واتقوا الله تعالى وأخلصوا عملهم ابتغاء وجهه تعالى ؟

إن تقوى الله مفتاح خزائن الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

فجعل اله تعالى التقوى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات، ووعد بالمزيد لمن شكر فقال : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] .

الإسراف والترف :

ومن أمراضنا التي دمرت مجتمعاتنا الإسراف والترف .

والإسراف لغة : مُجَاوَزَة الحَدِّ ، وأسرف مالَه : بدَّدَه وجاوز الحدّ في إنفاقه وتبذيره .

والإسراف اصطلاحاً : هو صرف الشيء فيما لا ينبغي زائدًا على ما ينبغي .

أما التَّرَف فيقول عنه علماء اللغة : هو التَّنَعُّمُ، والمُتْرَفُ من كان مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلاً ، وهو : الذي قد أَبْطَرَتْه النعمةُ وسَعة العيْشِ. وأَتْرَفَتْه النَّعْمةُ أَي أَطْغَتْه ، وهو : المُتَنَعِّمُ المُتَوَسِّعُ في مَلاذِّ الدنيا وشَهواتِها.

والإسراف والترف مرضان قديمان لكنهما زادا في العقدين الأخيرين فهناك إسراف كبير في الترف يسيطر على أمتنا العربية فالكماليات أضحت ضروريات والترفيهات صارت أساسيات ، فمثلاً : في مجال الأكل وهو مما لا يستغنى عنه إنسان تجد الناس – وخاصة الأطفال والشباب – قد أعرضوا عن طعام المنزل وأسرفوا في الأكل خارجه في محال أجنبية أو مصرية تبيع الوجبات الجاهزة وغيرها من الأطعمة الدخيلة على مجتمعنا العربي الإسلامي وتلك الأطعمة لا تسمن ولا تغني من جوع إنما ذات خطورة شديدة على الصحة واقتصاد الأسرة وكل يوم نسمع عن حالات تسمم بسبب هذه المأكولات غير الآمنة صحيّاً بل المؤكد ضرها لكنه الإسراف والترف .

ومن لا يأكل في هذه المحال فحتماً يشترى أكياس البطاطس المحمرة والمشروبات الغازية وغير ذلك من الأطعمة المغلفة أو المشروبات المعلبة .

إن نظرة سريعة لنفقات طلاب المدارس والجامعات على هذه المأكولات والمشروبات – غالية الثمن ضارة التأثير – لتثبت بجلاء مدى الإسراف في الترف الذي وصلنا إليه .

كان الطلاب قديما يأكلون ما تُعدُّه لهم الأمهات من أطعمة صحية – كالجبن والبيض والفول المدمس – ولا يأخذون من المصاريف إلا ما يشترون به لوازم الدراسة أو المواصلات وهذه الأجيال هي التي حرَّرت

مصر وبنت حضارتها ، أما اليوم فإن طعام البيت لا يؤكل رغم فائدته وخلوه من المواد الحافظ المهلكة ومن الفساد الناتج عن تحلل المواد العضوية في الأطعمة الجاهزة ، وإنما الذي يأكله هؤلاء الأطفال والشباب هو ما يشترونه من أطعمة ومشروبات تكلفهم الكثير من الجنيهات في شرائها ، والكثير من الجنيهات في العلاج منها !!

إن الناظر إلى هؤلاء الشباب ليخيل إليه أن هذه الأمة غنية إلى درجة كبيرة تسمح لها بهذا الترف والإسراف ، والحقيقة المؤلمة أن هذه الأمة فقيرة معدمة لا يوجد فيها من لا يشكو من الفاقة والفقر والمرض !!

إن الله تعالى جعل ترف الأمم سبباً لهلاكها ونذيراً لدمارها .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦] .

وقرأ عليٌّ رضي الله عنه " أَمَّرْنا " بالتشديد أي سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم ، وقيل " أمرنا " أي أكثرنا من المترفين المنعمين قال أبو عبيد: وإنما اخترنا "أمرنا" لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة. والمترف: المنعم؛ وخصوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم . (١)

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود : ١١٦] .

"ما أترفوا فيه" أي من الاشتغال بالمال واللَّذات، وإيثار ذلك على الآخرة .

لقد توعد الله تعالى المترفين بالفقر والجوع وها نحن نشهد كل يوم الحالة الاقتصادية تسير من سيء لأسوأ بسبب إهمال العمل البنَّاء ،

---

(١) انظر " تفسير القرطبى " ج١٠ ص ٢٣٤ .

وانتشار الكسل والاسترخاء ، وبسبب الإسراف في الترف وبطر النعم الذي عمَّ الناس .

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٤] هم يجأرون " أي يضجون ويستغيثون. وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور .

هذا عن عذابهم في الدنيا فإما عذابهم في الآخرة فيجعلهم الله تعالى في سموم وحميم .

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾

[الواقعة : ٤١ – ٤٥]

ولقد وصف الله تعالى المبذرين بأنهم أخوان الشياطين في التبذير والسفه ومعصية الله ، والتبذير لا يكون بكثرة الإنفاق إنما التبذير يكون بإنفاقه في غير الحق فربما صرف رجل الآلاف ولا يعد مسرفاً لأنه صرفها في منفعة لا بد منها ، وقد يعد مبذراً بإنفاقه اليسير في شراء شر لا خير فيه .

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾

[الإسراء : ٢٦ – ٢٧]

قال ابن مسعود: التبذير : الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .(١)

---

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ٦٩ .

وليس معنى هذا إن يُقَتِّر الإنسان على نفسه وأولاده إنما معناه أن يحسن التصرف فيما عنده من نعم ويعتدل في الإنفاق فإنه مسئول عن ماله " مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ " [صحيح الترمذى] .

وميزان العدل الذي يجب أن يزن به الإنسان إنفاقه هو قوله تعالى :

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء : ٢٩] .

إننا نستهلك أضعاف ما ننتج ، ونرمى في القمامة أضعاف ما نأكل ، ونبطر النعم أضعاف ما نشكر ، ونطلب من الأجر أضعاف ما نستحق، ونضيع الوقت في الملاهى أضعاف ما نعمل !

أعرفتم لماذا تقدم الغرب وتخلفنا . أرجو أن نعى الدرس جيداً وأن نتدارك ما فاتنا .

إذا سألت الموظف : لماذا ترتشي ؟ وإذا سألت العامل لم تأخذ من الأجر فوق ما تستحق ؟ وإذا سألت الفلاح لم ترش المبيدات المُسَرْطِنة؟ وإذا سالت التاجر لم تغش ؟ فإن الإجابة تكاد تكون واحدة وهى : لأن ما نحصل عليه من أجر لا يفي بحاجاتنا وحاجة أولادنا ، وإن كان الحلال يكفي ما مددنا أيدينا للحرام فنحن عبيد لقمة العيش نطلبها حيث وجدناها مغموسة بالحلال أو بالحرام .

وهؤلاء الناس فعلاً عبيد لغير الله عبيد للدرهم والدينار استعبدهم المال فعبدوه ولم يكتفوا بالحلال وهو – بحمد الله – كاف ومتيسر لكن نفوسهم الجشعة وقلوبهم المريضة تطلب المزيد " لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لا بْتَغَى وادياً ثالثاً ، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابن آدمَ إلا الترابُ "

[أخرجه مسلم]

يقول النبي ﷺ في هؤلاء " تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ (من أنواع الثياب) إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ " [رَوَاهُ البُخَارِى] .

فإن قنع هؤلاء أدعياء الفقر بالحلال واستغنوا به عن الحرام وأخلصوا عملهم وطلبوا من الله أجرهم بارك الله لهم في أموالهم وحفظ لهم أزواجهم وعيالهم ، ووقاه الله شر الأمراض ، وشر استغلال المستغلين .

لكن معظم هؤلاء كعبد السوء الذي لا يعمل إلا إذا أخذ ولا يقسط إلا إذا استوفي وكأنه ليس وراء الدنيا آخرة وليس بعد الموت حساب !

أعلمتم لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟ لأننا أصبحنا كعبيد السوء لا نعمل لله بل للدرهم والدينار والخميصة والقطيفة كثير منا اتخذوا الدنيا إلهاً فاتخذتهم عبيداً ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، واستغلوا الناسَ فاستغلهم الناسُ ، سَرَقوا فَسُرِقوا ، قبلوا الرشوة فأُجْبِروا على دفع أضعافها .

لماذا تقدَّم الغرب وتخلفنا :

لقد تقدَّم الغرب لأنهم أخذوا في أسباب العلم والتفكير العلمي وشجعوا البحث والتجريب وتحرروا من عبادة القديم والتقليد ولم يستسلموا للأفكار الشائعة بل عملوا بجد وإخلاص لإيجاد حلول جديدة وأتاحوا الفرصة لمفكريهم ومبدعيهم أن يقودوا الركب ، وحاربوا الجهل والتخلف والتقليد ، وجعلوا مقياس الترقي فيهم للمبدعين المبتكرين الذين يحسنون استخدام عقولهم ، وصرفوا مبالغ طائلة على المخترعات والابتكارات والاكتشافات وكافئوا المتميزين وقدروهم وحثوهم على مواصلة البحث والتجريب ، وذللوا أمامهم كل العقبات ووضعوا كل إمكانياتهم في خدمتهم .

إن أمريكا لتنفق على البحث العلمي ٢.٥ % من ميزانيتها ، أما إسرائيل فتنفق ٣ % من ميزانيتها على البحث العلمي وهما أكبر دواتين تنفقان على البحوث العلمية ، فكم ننفق نحن ؟! ويجيبك المهتمون بالبحث العلمي في مصر قائلين :

رغم كل ما يقال عن أهمية دفع البحث العلمي في الجامعات المصرية إلا أن دفع العجلة يتم تقريبا بالزق ، وكأن البحث العلمي قد احتل المرتبة الدنيا في سلم أوليات الإنفاق الجامعي فالموارد البحثية شحيحة للغاية وتمويل الجامعات المصرية للبحث العلمي غير موجود بأي مقياس حقيقي ، والبحث العلمي الذي يعد أحد أهم وظائف الجامعات لا يحظى إلا بالدعم الكلامي فقط الذي لا يرقى إلى مستوى الفعل . (١)

لذا كان من الطبيعي أن يتقدموا ويبسطوا نفوذهم علينا خاصة أنهم لا يكتفون بإعطاء الفرصة لأفراد شعوبهم لكي يبتكروا ويبدعوا ويساهموا في تقدمهم ورقيهم بل استقطبوا العقول النابهة من كل بلاد العالم وخاصة البلاد المتخلفة وييسروا لهم جميع السبل وهيئوا لهم جميع الظروف ليبدعوا ويبتكروا فأبدعوا وابتكروا وأتوا بالابتكارات مع أن هؤلاء الأشخاص كانوا في بلادهم طاقات معطلة ، وكمٌّ مهمل ، وهذا سر تقدم الغرب وتخلف العرب .

إن الغرب أحسن تعليم أبنائه فنمَّى مواهبهم وفجَّر قدراتهم العقلية وشجع المفكرين والمتميزين ، وجعل مقياس الترقي هو الإبداع ، وشجع على التجريب والتجديد وحارب التكرار والتقليد أما نحن فأسأنا تعليم

---

(١) جريدة " الأخبار " المصرية بتاريخ ٨ / ٤ / ٢٠٠٤ .

أولادنا وقتلنا فيهم الإبداع والتفكير وشجعنا فيهم الحفظ والتقليد ، وجعلنا مقياس الترقي فينا هو اتباع التعليمات والروتين وحاربنا التجريب والتجديد حتى أصبح التعليم عندنا شعاره بقدر ما تحفظ من الملازم والملخصات تحصل على أعلى الدرجات ! وبقدر ما تُعْمل عقلك وتبدع يكون حظك من الفشل والإخفاق ! ، أما في مجال العمل حكومي فبقدر ما تتمسك بالروتين وتنافق المسئولين تترقى وتكون من المرموقين !

فإذا تركنا نظام التعليم وذهبنا إلى مجال الثقافة والفن فإننا نجده يدعم الفساد ويثير الغرائز ويغرى بالانحلال فإذا جئنا إلى مجال الدعوة الدينية فإن وعاظنا يدعمون قيم التقليد والإتباع للقديم ويحذرون من التجديد والإبداع ؛ فالسلف لم يترك للخلف شيئا يضيفونه في مجال الدين والدنيا ، وباب الاجتهاد قد أغلق بالضبة والمفتاح والخير كل الخير في اتباع القديم والشر كل الشر في الإبداع والتجديد !!

هل عرفنا لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟

ولا يكف وعاظنا عن رمى الغرب بالمعاصي والفجور وحمد الله على ما هم فيه من تقوى وإيمان مع أن معاصي الغرب لم تقف ضد تقدمهم، وإيمانهم المزعوم عرقل تقدمنا ، والحقيقة أننا لم نبصر إلا معاصي الجوارح عند غيرنا وعمينا عن معاصي القلوب فينا .

***

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٣- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة.

دار زهور المعرفة والبركة

٤- الفوائد الجمة في تفسير جزء عمَّ . " " " " " " " " " "

٥- عبقرية محمد للعقاد ، مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية وذكر مفتاح شخصية خير البرية . " " " " " " " " " " " "

٦- ضبط وتخريج الأحاديث النبوية لكتاب " على هامش السيرة لطه حسين" مع مناقشة أفكار الكاتب واتجاهاته الدينية. " " " " " " " " " "

٧- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع. " " " " " " " " " "

٨- أبو بكر الصديق ، ومنزلة الصديقية دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة نحو خطاب ديني جديد

١- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة . دار زهور المعرفة والبركة

٢- في العقيدة والشريعة والأخلاق . " " " " " " " " " "

٣- حوارات مفتوحة مع تلميذتي الصريحة . " " " " " " " " " " " "

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

١- الإسلام والعقل الحديث . دار نوبل للنشر والتوزيع

٢- الإسلام والنفس الإنسانية . " " " " " " " " "

٣- الإسلام والوجدان . " " " " " " " "

٤- الإسلام واحتياجات الإنسان الفسيولوجية والاجتماعية . " " " " " " " "

٥- الإسلام والحضارة . " " " " " " " "

٦- الأزهر تاريخ من الوطنية والوسطية . " " " " " " " "

٧- مكانة المرأة بين العادات المجحفة والشريعة المنصفة . " " " " " " " "

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو . دار زهور المعرفة والبركة

٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية " " " " " " " "

٤- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي " " " " " " " " " "

٥- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " " " " " " " " "

٦- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " " " " " " " " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الإستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .
دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي .
دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن. " " " " " " " "

٤- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة " " " " " " "

٥-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية . " " " " " " " " " " "

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ .

دار زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الحضارة المصريَّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . دار زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ " " " " " " " " " " " "

٣- البحث عن شخصية مصر الحقيقية دار نوبل للنشر والتوزيع

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) دار زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) " " " " " " " " " " " "

٥- شهادات رموز ومعالم مصرية حديثة على بطولات مصرية مجيدة . (قصص مصورة للنشء والشباب) دار زهور المعرفة والبركة

٦- طرائف ونوادر مدرسين معاصرين . " " " " " " " " " " " "

مذكرات أديب مغمور (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٧- أحلام مواطن متفائل .(سيرة فكرية) " " " " " " " " " " " " " "

٨- حكايات جنود في سيناء . (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٩- حكاية لكل امرأة وبنت . (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص) دار زهور المعرفة والبركة

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " " " " " " " "

* سلسلة لغز الحضارة المصرية القديمة (٨ قصص) " " " " " " " " " " " " " "

* سلسلة منجزات الحضارة المصرية القديمة (٦ قصص) " " " " " " " " " " " " "

توجد كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة على مستوى في العالم، ومعظم الجامعات العربية، ومعظم مدارس وجامعات مصر ، وكتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه "متى يثور المصريون".

- قررت دولة قطر قصة " وردة المدرسة " على الصف الثالث الابتدائي .
- نشرت له جريدة الأهرام العربي سلسلة مقالات عرض فيها أربع كتب :

١- أبو وبكر الصديق ومنزلة الصديقية .
٢- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع .
٣- عبقرية محمد للعقاد .
٤- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة .

التليفون المحمول: ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩ -٠١١٤٢٠٤٣٩٤٠

البريد الالكتروني: yuness2005@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

تساؤلات حول الحضارة الإسلامية

معاصي القلوب والتحلف الحضاري

الموضوع	الصفحة

***